اقتلوا الموتى

مجموعة قصصية



طنطاوي عبد الحميد

اقتلوا الموتى

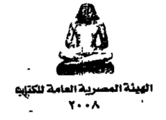
عبد الحميد، طنطاوى.
اقتلوا الموتى : مجموعة قصصية / طنطاوى
عبد الحميد. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة
للكتاب، ٢٠٠٨.
١٤٤ ص ؛ ٢٠ سم .
تدمك ٠ ٥٦٠ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص العربية القصيرة.
(أ) العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٦٢٥/ ٢٠٠٨
I.S.B.N- 978 - 977 - 420 - 560 - 0
ديوى ٨١٣,٠١

الإشراف الفنى : **صبرى عبد الواحد**

اقتلوا الموتى!

مجموعة قصصية

طنطاوى عبد الحميد



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٨

الإهداء

إلى آخر عنقود العشق والمحبة

بين أبى وأمى.. رحمهما الله

إلى رجل القانون..

أخى الأصغر ممدوح طنطاوى المحامى.

اقتلوا الموتى

- ١ -

اليوم لم يتكرر من قبل، كل شىء من حولى يتغير، سحب تتجمع فى سماء حياتى، تركض الذكريات ولا أظن الفومتو التى اخترعها دكتور زويل تستطيع، بحال من الأحوال، أن تدرك هذه السرعات المتلاحقة المجنونة. قامته المديدة وجسده الممشوق لم تستطع قدماه أن تصمد تحته فاهتزت وارتعشت وانهار البنيان، شاربه الأبيض المفتول تراخى، عيناه الحادتان، كعينى صقر، ذهب بريقهما، بل استسلمتا فى نعاس أو تسمرتا على الجدران وربما سقف الحجرة، فجأة تجمدت النظرات على وجهى فحسب دون الجميع، كان يتفحصنى ربما، محزونًا لأننى أصغرهم سنًا، احتمال قائم، امتلأت عيناى بالدمع، واعتصر قلبى الحزن وتسمرت قدماى وأنا أتمنى الاقتراب، صمموا أن أخرج من

الحجرة. لساني التصق بسقف حلقي وماتت الكلمات، دفعوني، تحللت من قيودي، تحركت للخارج، طالبوني بعدم الدخول عليه في هذه الحالة، وافقت بلا كلمات، ذهبوا في نومهم، تسللت قبيل الفجر ودخلت، ظننته نائمًا، أنفاسه متلاحقة بصوت مسموع، اقتربت أكثر، نظراته وكأنها تتفحصني، لم أدرك اللحظة والوقت، انحسر جلبابه عن ساقيه اللتين أصابهما الشلل، أدركت أنه يحاول أن يتحرك، شعرت بما يعانيه، خائف أن تظهر عورته أمامي!! سحبت جلبابه لتغطي ما ظهر من جسده ، تتلاحق أنفاسه تصفعني، تهبط دموعي قسرًا عني، أولي وجهي للناحية الأخرى، أمسح آثار الدمع وأعود إليه بالنظر، يبتسم في وهن بالغ وترتعش شفتاه ولا يتحرك لسانه ولا أدرك ما يقول، تتسارع الأنفاس، تبرد الأطراف، تتحجر العين، يلهث نبض اليد، تذهب حمرة الوجه... وشهقة طويلة ويصمت النبض وأحس أن كل نجوم الدنيا أفلت في تلك اللحظة، أصرخ.. لا أصرخ.. لا أدرك..

- ٢ -

غريبة رائحة الموت على الأحياء، حجرة صغيرة تحت

مستوى الأرض رطبة، لا منفذ لضوء أو هواء، تمتص الجدران الرائحة، بمرور الوقت لا تتغير نفس الرائحة الغريبة لا يشفع لها قادم جديد مسكوب فوقه العديد من الروائح الطيبة، بقايا لهياكل فى أقمشة كانت يومًا بيضاء بليت وتآكلت واقترب لونها من السواد، رصوهم بجوار بعضهم رءوسهم ناحية القبلة.

لم أعد صغيرًا، صممت أن ألحد الشيخ بنفسى، أمام إصرارى تركونى، لم أصدق أننى سأهيل عليه الرمال بيدى، فككت الأربطة من حول جسده وكشفت وجهه، اعترتنى رعشة غريبة، لم أتماسك، انحنيت وقبلت جبهته، تحرك قلبى فى عنف، وانهمرت الدموع من مقلتى، أرجعنى للخلف فاستندت بظهرى للجدار وصاح المقرئ بصوت مرتفع «وحدوا الله.. لا إله إلا الله» هنا استقر الشيخ فى مقامه الأخير وأسدل ستار، عدت لموضعى قريبًا من رأسه ولقنته الشهادة أكثر من مرة، وبيد مرتعشة مسحت على وجهه، وأخذت أرتل بعضَ آيات القرآن بصوت لا يخرج لحيز مسموع، ذهب ضجيج الدنيا كلها فى ذات اللحظة، صمتت كل الآمال النشوى، انقض جبل الصمت على الأحياء، فتراخت أعضاء الجسد وانثال الدمع وانشطر

الوجد على من مات ومن يقطن دار الأحياء.

دفعونى للخارج، تتسارع الأيدى وتتناول الأحجار وتسد الفتحة بالحجر الصلد وبالأسمنت، كلهم أكثر عشاقه ومحبيه وأولاده، أجلس ورأسى بين قدمى، أتأمل وأبكى لا أحد يهتم بى أو يواسينى، فالجميع تقطر من عيونهم الأحزان، رائحة الموت فى ثنايا ملابسى أشمها جيداً مختلطة بالدموع ومعجونة بالآهات ويعود المقرئ «يس والقرآن الحكيم» تتمتم الشفاه وتخشع القلوب وتسكن العواصف الفياضة بالألم وأردد بدورى وتتوالى الدعوات، يستعد موكب المودعين للعودة وترك الشيخ بين جنبات الحجرة الضيقة، يدفعنى أحدهم، أقوم من جلستى وأمضى بين الجموع منكس الرأس والفؤاد هائماً فى دنيا الشيخ منذ طفولتى، صورته فى مجلس، فى مقدمة جموع الرجال فى المسيرة، كلمته المسموعة، ضحكاته، أشعاره القديمة التى يحفظها وحفظتها من شفتيه، أنظر خلفى أتأمل قباب المدافن وشواهدها، تتعانق فى صمت موحش.

- ٣ -

يبكى الجميع فراقه، يعددون مناقبه، يتناوب المقرئون

لآيات الله التلاوة، أتمنى الصراخ، أخاف عبارات التأنيب التى ستسقط فوق رأسى، فى صمتى حسرة وسكونى خشوع، ثلاثة أيام متتالية وينفض موكب المعزين، يمضى كل لبيته وتشد الأيدى على الأيدى قائلة «البقاء لله.. المصاب مصابنا جميعًا» ثلاثة أيام تائه بين أروقة السرادق الضخم وحجرات المنزل المتعددة والملابس السوداء التى اتشحت بها النساء، ذهول فى نظراتى، لم يطف بخيالى يومًا أننى أفارقه، بعد منتصف الليل يعم الهدوء، أتسكع فى ردهات المنزل وتقودنى قدماى لحجرته، أتأمل ملابسه المعلقة فى المشاجب وعباءته السوداء، عصاه المعقوفة الطرف التى لا تفارقه وحيدة وجلسته فوق سريره، فوق حاجز النافذة بقايا سجائره، أما محافظته المنتفخة دائمًا بالأوراق النقدية وغير النقدية هى الوحيدة من متعلقاته التى برحت مكانها، لم أهتم بشىء، رائحة الحجرة فحسب، خلعت الحذاء وتمددت فوق مخدعه، تمنيت النوم، لم يداعب النوم عينى، نهضت وفى حلقى غصة، لم أدرك أين أنا؟ همسات ضاحكة ماجنة فى لحظة عشق حلال، بين أخى الأكبر وزوجته، أحاول أن أبتعد، ويتردد حديث عن ميراث.. وكم.. وكم.. أبتعد فى ذهول.

- ٤ -

قمرية الوجه، رقيقة الملامح، وديعة كطفل فى مهده، كلماتها همسات، هادئة كنسمة مساء فوق سطح بحيرة ساكنة، منذ مات زوجها وترك فى رقبتها طفلين لم يتعد أكبرهما ثلاث سنوات وأخذت عهدًا على نفسها ألا تتزوج، تمت إلينا بصلة قرابة، كان الشيخ بها يضرب المثل، كثيرًا ما أرسلنى فى المساء إليها أدس فى يدها النقود ولا أدرك كم مقدارها أو أذهب بخير جاد به الله عليه فأرسل منه إليها، كنت رسوله، أعشق هذا التكليف وخاصة إن كان فى المساء ففى المنزل لا تلبس السواد وكانت تحدونى رغبة فى الجلوس إليها وأتصنع الاعتذار عن شرب الشاى، وبمجرد أن تقسم أجلس، تحدثنى وبى شغف للحديث والتأمل فى وجهها العذب الجميل، ليست مثل سائر النساء، امتدت يدى يومًا إلى شفتيها وتأكدت أن اللون الأحمر الوردى طبعة إلهية، وسألتنى وأجبتها وضحكت وقصصت لها عما تفعله نساء المدينة، كيف يتزينن. وما يرتدين؟ وكانت الدهشة فوق محياها رقيقة تبعث على الدفء، لا تتحرج أمامى فتقص عن عشقها للشيخ.

- ٥ -

إلى أين أذهب؟ ساقتنى قدماى إليها مباشرة، كنت أشعر أن نكبتها تعادل مصابى وحزنها قريب من أحزانى، يوم وفاته مرغت وجهها فى التراب، صرخاتها كانت تخترق أذنى، صوتها له رنين خاص على قلبى فأشاركها النواح فى صمت بين الرجال، طرقات خفيفة وتردد غريب وكدت أعود أدراجى، خوف لا أدرك أسبابه ودوافعه، أخرجنى من ترددى، انفراج الباب ببطء والسؤال عن الطارق ولكن لم أستطع الإجابة، اتسع الباب انفراجًا وكانت دهشتها بالغة وطالبتنى بالدخول، كدت ألعنها وأنا أنظر لملابسها رغم ما يبدو على وجهها من مظاهر الحزن وخاصة عينيها، وحاولت الاستئذان لم تترك لى الخيار، صنعت الشاى كالمعتاد، حاولت أن تحدثنى وأنا فى صمت وعيناى بين قدمى، امتدت يدها ورفعت وجهى، انفجرت فى بكاء وبدورها شاركتنى، أخذتنى بين ذراعيها وأحسست بدفء كلماتها، قصت ورددت أفعال الشيخ معها، لم أدر بنفسى وأنا أقص عليها ما مر بى فى يومى كيف اختفت حافظة نقود الشيخ!! ما سمعت من حديث بين أخى الأكبر وزوجته!! وسألتها لماذا...؟ همس شفتيها فى أذنى غريب،

سرت حمى فى جسدى، اشتدت التصاقًا، أطفأت المصباح.

- ٦ -

عاد الضوء، لحظة غريبة، قطعة حديد قاربت الانصهار ثم انغمست فى الماء فجأة، سعادة غامرة فى لحظة حزن أم بذور تنمو وتشق الحجر الصلد، تجربة لم أخضها من قبل، همسات حلمت بها، هزات متتابعات ألمت بجسدى فيها رعشة محببة، وجهها البللورى الصافى أضحى كقرص شمس الغروب، لطمت خديها، لملمت شعر رأسها، وسألتنى بدهشة... ظننتك... مازلت؟ وسألتها عما تقصد، تصرخ فى وجهى وتعنفنى..، تندب حظها وتلعننى وأنا باضطراب يغمرنى أحاول مواساتها..، تتحدث عن فضيحة قد تلم بها، أنفاسى تتلاحق ودموعى لا تنساب، هى تتحدث غدًا تصير سيرتها مضغة فى الأفواه، وتقترح الحلول وكيفية الهروب، الموت فحسب.. أم الانتحار.. الهروب. أى الحلرق أفضل وأسلم!! تزداد حيرتى، تموت الكلمات فوق لسانى ترتعش شفتاى تلتمس الحديث ولا حديث، تهرب الأحزان وتطفو فوق الوجه علامات الخوف والاضطراب والحدث الجديد الغريب... نشوة غريبة... حزن.

- ٧ -

الزغاريد تملأ الأرجاء، طلقات الأعيرة النارية تشعل الليل لهبًا ورعدًا، تملكنى الخوف، حاولت أن أحشر رأسى وأذنى بين الوسائد، الصوت يصل إلىَّ ويقلق مضجعى، تتعالى هتافات وصراخات ودعوات وابتهالات، تتداخل جميعها وتصنع سيمفونية غريبة، أسمع الكلمات... «الشيخ عاد... الله أكبر.... بركاتك...» أصيخ ثانية هى نفس العبارات، أرفع الوسائد، ويتأكد كل شىء، لا أدرى بنفسى، أهبط الدرج سريعًا، المنزل يموج بالبشر، لا أجد موضعًا لقدم، النساء - الشيوخ - الرجال... خليط متداخل... أدفع هذا وأحشر نفسى وأتزاحم، «وأتساءل أين هو؟» يدفعنى المجذوب للخلف وهو يصيح «الله أكبر... الله أكبر..» أقترب من باب المندرة الكبيرة وأكاد أصل للباب، تدفعنى الحشود للخلف تقذفنى تبتلعنى أمواج البشر، أجدها أمامى مباشرة تغمز لى وابتسامة فوق وجهها وشفتيها التى مازالت آثار شفتى فوقهما، تزداد ضربات قلبى، أرتعش وكأن حمى أصابتنى، الجميع يتبادلون التهانى، البهجة طاغية أمام المنزل أيضًا ولا موضع لقدم، كيف عاد؟ تتزاحم الأسئلة فوق رأسى وأصبح كحشرة صغيرة فى

خيوط عنكبوتية، تذهب سدى كل محاولات الإفلات من بين الأجساد المتشابكة، يرقصون.. يغنون.. ولا أدرك ماذا أفعل؟.

أصرخ بكل قواى.. دعونى أراه.. أشاهده.

- ٨ -

ينفرج الباب ويعم الصمت الجميع، ويخرج إمام المسجد وقد غمرت الدهشة وجهه، ولحيته كللت كلها بالبياض رغم أنها فى الصباح كانت ما بين اللونين الأبيض والأسود، ويصرخ بأعلى صوته.. «لن يدخل عليه أحد.. اتركوه.. إنه مرهق.. وهو يخبركم بأن كل الموتى سيعودون تباعًا وبصورة عكسية.. من مات منذ أسبوع سيعود بعد أسبوع ومن مات من شهر مضى سيعود بعد شهر آت.. أبشروا.. كل الموتى سيعودون..» وماتت كلمات الإمام وأغلق الباب خلفه بالمفتاح ووضعه فى جيبه واختفى بين الجموع المحتشدة فى الداخل والخارج.

- ٩ -

صامتون.. توقفت الزغاريد وصمتت البنادق وعم الجميع الصمت.. وتحركت العيون وانفرجت الشفاه وجفت

الحلوق وأصاب الألسنة الجمود، التصقت بى وتقابلت عيوننا .. قطع الصمت البهلول.. وهو يضحك ويتكلم.. «سيعودون.. ويعرفون كل شىء.. المقتول.. المسروق.. الزانى والزانية.. سيرفعون عن كل الوجوه الأقنعة.. ستظهر الحقائق.. يستردون أرضهم.. بيوتهم.. أحلامهم.. نساءهم.. لن ترثوهم لن تقتسموا أموالهم..» يضحك البهلول ويغنى ويواصل.. لكن كلماته لا تصل إلى آذانهم.. توقفوا عن السمع أيضًا، ذاب الجليد من فوق الشفاه والألسنة، تحركت الأجساد والأعضاء ذهبت الدهشة بعض الشىء.

تساءلوا بينهم... يعودون!! يعلمون كل شىء!! يستردون ما ورثناه عنهم!! لقد بعت ما ورثته!! المقتول يعلم من قاتله!! المخدوع يعرف من خدعه ومن سرقه! هل يتزوجون وينجبون من جديد؟ هل ستسعنا البيوت؟.. كيف نعيش؟ فى عيونهم ذهول، فى كلماتهم توجس وخوف، يلعنون صاحب النبوءة الغريبة، صرخ أحدهم بصوت مرتفع ولم تدركه العيون.. «إنه ظلم.. الميت انتهى والحى أولى بالحياة، لا تجعلوهم يعودون.. لن نستقبلهم.. ماتوا».

- ١٠ -

تغير وجه الإمام.. فلم تعد نفس الملامح التى اعتدناها طالب الجميع بالصمت وكان الحل الأمثل كما رآه وجملة الحكماء.. إن فى عودة الموتى من جديد للحياة خراب.. وعلينا جميعًا أن نمنع هذه الكارثة التى ستحل بنا جميعًا.. علينا أن نقتل من يعود منهم.. وتناويت الأسئلة وترددت الأقاويل.. وانتهى الأمر بأن يقتل العائد أعز أولاده إلى قلبه.

- ١١ -

دفعتنى الأرملة الجميلة وهى تهمس فى أذنى، «حتى يخلو لنا الجو ونعيش معًا.. أنت.. أنت..» وصرخت قائلة إننى أحب الناس إلى قلب الشيخ، أشاروا على، اتخذوا قرارهم، يجب ألا يعود أحد من الموتى، وإن قتل الأول فلن يفكر الآخرون فى العودة، أيديهم تدفعنى، ناولنى أحدهم بندقية، والآخر سكينًا ذات نصل حاد، اجتمعوا على فكرة واحدة، أن يقتلوا العائد الذى بكوه منذ ثلاثة أيام وأن تكون يدى صاحبة الطعنة الأولى أو الطلقة الأولى، تراجعت.. دفعونى للأمام بقوة، ارتعشت أطرافى.. تصرخ الأرملة فى

وجهى وتدفعنى معهم، أطلقوا على الألقاب... البطل.. المنقذ.. لم تستطع قدماى حملى، حملونى فوق أكتافهم وهتفوا باسمى، حاولت الحديث كمموا فمى بصراخهم وعيونهم، لم يصل لأذنى ما يردده لسانى ووجدانى.. أفسحوا لى الطريق، قلدونى الوسام.. كسروا الباب ووقفت أمامه شاهرا البندقية والسكين أطلقت الرصاص وأسكنت السكين ضلوعه وتولوا فى رشق جسده بالخناجر.. صرخت...

الأصل والظل

- ١ -

الأيام الأولى من العام الدراسى، كرنفال الأزياء فى أرجاء الجامعة، كل يستعرض، ابتسامات فوق الوجوه، عيون تتأمل وأخرى تتربص وقلوب خضراء تسعى للقاء المحبوب، جلس بين زملائه فوق الأرض وتبادلوا الأحاديث، أحاديث تعكس ما يدور بخلدهم فلا توجد قضية محددة تستنفر عقولهم، تتشعب الموضوعات من فكرة تطرأ، حتى حرب أكتوبر وذكرى الانتصار ما كادوا يبدءون بالحديث حتى تشعب ثانية وانتهى بأحدث المسرحيات المعروضة وملابس الراقصة إياها.

بذاءات الممثلين وإيماءات وغمزات الممثلات، تناولوها وكانت هى الشاغل الأكبر، منهم من عارض بشدة فتناولوه بالسخرية، نصبوهم ملوكًا وعظماء، كل منهم يتمنى،

أصبحت الراقصة إياها المثال و القدوة لأغلبيتهم، تضاحكوا لم يستطع الانتظار، مشهود له بسخرياته اللاذعة، أخذ من ذكريات أبيه مادة للسخرية، فيقص تارة عن بطولاته فى العبور وقدرات الراقصة، كلمات أبيه عن الأشلاء التى تناثرت والأبطال الذين ذهبوا ويقارن بذراع الراقصة تثنيها وتلويها، يتحدث عن جبال الرمال التى وقفت يومها حائلاً بينهم والوصول للقلاع الحصينة التى صنعها الأعداء فى خط بارليف ويطلق ضحكة ساخرة عالية ويشيد بقلاع الراقصة وقوة خصرها وحركة أقدامها المدفعية التى تهتز لها وجدان المشاهدين.. انطلقوا معه فى عبث الحديث ورداءة الألفاظ.

- ٢ -

غداً السادس من أكتوبر، جلس الرجل أمام التلفاز يشاهد فيلماً عن العبور العظيم. رغم تفاهة العرض وسباق الممثلين فى الأداء الصوتى والحركى والمشهد الوحيد المتكرر من بعض الصور التسجيلية عن الحرب التى عمل مونتاج لها وبدت كأنها فى سياق أحداث الفيلم، انسابت الدموع من عين الرجل، نظر إليه ابنه الجامعى وابتسم فى حزن

وحب مشوش، لم يسكن الفتى فى مجلسه فتحرك من مكانه وأدار مغير القنوات لقناة أخرى،... كانت حسناء ترقص فى إعلان عن منتج جديد وتغمز بعينيها للمشاهدين، نظر الرجل إلى ابنه فى صمت والفتى لم يعره انتباهًا.

كاد ينشب صراع بين الأب وولده، شاركت الأم ولكنها لم تتقلد منصب قاض بفك شجار بل كانت فى صف الابن، استعاذ الرجل بالله من الشيطان الرجيم ودخل إلى حجرته..

- ٣ -

نشبت الحرب.. كانت الصيحة التى ألهبت الحواس.. الله أكبر يومها استردت الوجوه بشاشتها وهى تقابل الموت والشهادة، اهتزت القلوب بفعل الصيحة.. عاد الرشد، مضى كل يسعى للشهادة، انفجر صمت سنوات من الهوان.. اهتزت الأرض.. انشق جبل الوهم أمامهم، تدافعوا واندفعوا، تعانقت الوجوه رغم الدخان والتراب والرمل العالق فوقها.. العيون تتحرك وتبارك.. ذهب الخوف وطمع كل فى الشهادة. اندفاع سجين محكوم عليه بالسجن مدى

الحياة، انفرج باب الحرية أمامه، الموت كان أروع صور الحرية وأسمى صور الجمال، تنقض الدانات الهوجاء فتنثر بتفجراتها النيران والدخان وتترك فى الأرض حفرًا عميقة ولكنها لا تترك أثرًا فى النفوس بل تقويها وتدفعها وتلهب حماسها، ثلاثة أيام متتالية كل عشاق الحرية يندفعون.. أمانى الكرامة تثور.. اليوم الرابع هدأت حدة القصف على موقعهم بعض الشىء.. توضأ لصلاة المغرب وفى طريقه لأدائها تفجر المكان من حوله وتسابق كل منهم لحفرة برميلية يلوذ بها فألقى بنفسه بأحد هذه الخنادق... وتوالى القصف... ثوان معدودات وأسرع كلب يلهث وألقى بنفسه فى خندقه الصغير وتتباعث الدانات ويتوالى القصف.. تملكهما الخوف، كان الكلب أكثر خوفًا واضطرابًا ظهر جليًا فى لهاثه المتتابع..

وفمه المفتوح وعيناه الزائغتان.. انساب بول الكلب فوق ملابسه أحس بالبلل، ثارت ثائرته وتذكر وضوءه، فهمَّ أن يلقى بالكلب خارج الخندق، نظر الكلب بحدة، فأسبل الكلب جفنيه وانحنى برأسه، انفجرت قريبًا منهما قنبلة فخفض رأسه ودفع رأس الكلب لأسفل، بعد أن ذهب الدخان والنار تقابلت عيونهما من جديد.. يومها قص الحكاية ليقتل الوقت ولم ينسها.

- ٤ -

فى ساعة متأخرة عادت ابنته، حملت فى يدها حقيبة جلدية كبيرة بعض الشىء، انطلق الجميع صوب الحقيبة، تهللت أساريرهم، ناولت الفتاة أمها مبلغًا من المال، تصنع عدم الاهتمام وداخله يموج بأسئلة كثيرة..؟ ما نوعية هذا العمل؟ الفتاة فى سن الزواج وتعود فى تلك الساعة المتأخرة؟... ماذا يقول الناس والجيران؟، من قبل حاول أن يتحدث، عنفته زوجته وساقت المبررات والدوافع، لم يصمت ابنه الجامعى فأسرف فى حديث طويل عن حياة ومتغيراتها وعقد المقارنات بينهم وغيرهم، اختلس النظر لوجه ابنته الذى بدا شاحبًا وآثار التعب واضحة فوق الوجه وأسفل العينين، تقابلت عيناهما، تحركت صوبه مباشرة طبعت فوق وجهه قبلة واستأذنتهم ودخلت لغرفتها لتنام حتى تستطيع الاستيقاظ مبكرًا. بلع الرجل آهاته ووأد دمعته التى كادت تخرج للحياة....

- ٥ -

فى الاستنزاف كلفت مجموعة منهم بالعبور ليلاً فى مهمة محددة غايتها محاولة تدمير مدافع العدو الثقيلة

التى تـرك مـدينـة السـويس، حدد الموقع جيـداً، شدوا على أيـدى بـعـضـهم فى قـوة وتـصـمـيم وعـزم، تحـرك قـائـد مجموعتهم وهـم خلفه كل بعتاده وسلاحه، فى صمت الليل ورغم برودة الجو عبروا القناة، تسللوا عبر المواقع الحصينة رغم دقات قلوبهم المتسارعـة يغمرهم العزم والتصميم، انتشروا حـول «التبة العاليـة الحصينـة» فلزم كل اثنين جهة معينـة، تحـرك كل منـهم تارة علـى قدميه وتارة فـوق بطنه مستعينًا بحـركة قـدميه ويديه وفى توقيت واحـد صوبوا أسلحتهم وفى ثوان معدودات سيطـروا على الموقع تمامًا بعد أن قتلوا كل من فيه. فتشوا المكان جيداً وأخذوا بعضاً من الذخيرة والرسوم والشفرات، وجهاز إرسـال بالغ الدقة، وأخـذ بطل سلاح المهنـدسين فى تلغيم المدافع العملاقة ولفها بالأسـلاك وتوصيلها بجهاز التفجير القـوى الذى كان معه، الجميع صامتون وهـو يعمل بكل همـة ونشاط وفهم كـامل، انـتهـى الموعـد المحـدد ولم ينـته من عـمـله، كشفت المدفعية المصرية من هجومها حتى يعودوا جميعًا تحت غطاء الضرب المتبادل. طلب منه القائد أن يترك مهمته، ابتسم وأشار إليه أن يخرجوا هم وسيلحق بهم عند حافة القنـاة، حاول القائد ولكنه صمم على رأيه، تقدموا تحت

ستار الليل والقذائف المتبادلة وقفوا عند المكان المحدد، عيونهم ترقب الموقع وعودة زميلهم، أمرهم القائد بالعودة، وانتظر هو، ما كادوا يسبحون بضعة أمتار ودوى الانفجار فى الموقع، وتدافعت ألسنة النيران لأعلى ولم يسلموا من آثار الانفجارات والقذائف، أصيب بطرس فى كتفه فتوقف ذراعه تمامًا... حمله الشيخ جوهرى وواصل الجميع... ولحقهم القائد.. استشهد بطل سلاح المهندسين وظلت ابتسامته الواسعة الأخيرة، وأسرع الشيخ جوهرى يرفع العتاد من فوق جسم بطرس وفك سترته وحمد الله وأخبرهم بسطحية الإصابة.. فى جوف الموقع بارك كل منهم للآخر بالنجاح، وقرءوا الفاتحة على روح الشهيد..

- ٦ -

الشركة التى تعمل بها الفتاة ذات اسم أمريكى وشعارها أمريكى ومنتجها يحمل العنوان، تغدق الشركة على عامليها، كان من حظ الفتاة أن تعمل فى قسم الإعلانات والعلاقات، تغير ملبسها بمرور الوقت، أجادت الحديث بلكنة لا تعكس حقيقة وضعها الاجتماعى، فى البداية أحست بالخوف فالمكاتب المهيبة والكراسى المتحركة وأجهزة التكييف

وأحدث أجهزة الاتصالات تنتشر فى مختلف الحجرات، تأملت الملابس الجميلة القصيرة أو الطويلة الملتصقة فبرزت المفاتن وتعددت صفوف الألوان والأصباغ فى الشعر والوجه واليدين وامتزجت اللغة العربية العامية المصرية بكلمات إنجليزية وأصبح هذا هو المتبع والحديث ودون ذلك لا وجود له ولا سبيل للبقاء، تلونت الفتاة، واحتارت الفتاة بين تشجيع أمها وأخيها وتذمر أبيها، وكانت الغلبة للمجموع، فغدت تذهب وتعود بألوانها وأصباغها من الصباح وحتى نهاية اليوم، مالت عليها إحداهن وهمست فى أذنها بحديث غايته سهرة جميلة وساقت لها مبررات ومعارف ربما يدفعون بها لمقدمة الصفوف فى العمل والكسب، لم ترضخ لكل المغريات التى ساقتها، تمر الأيام ويعود الهمس وتزداد المغريات وجميعهن من حولها يسر عن الخطى، أسرع لهاث قلبها الأخضر الصغير وتضاربت الأمانى، كانت البداية مجرد الإعلان، ثم الإعلام عن الملابس وإعلان آخر لملابس صيفية وتتخفف الملابس، أحست بما آلت إليه فتصنعت الدورين ومثلتهما باقتدار: دورها فى المنزل متناقض تمامًا لدورها فى العمل وتوابع العمل وكأنها خريجة مدرسة السينما العالمية وهوليود

العظيمة... تغيرت قيمة الإعلان ظهرت فى السهرات بمصاحبة ذوى النفوذ والعملاء...

- ٧ -

توقف الرجل.. البطل الذى كان أمام الضابط الصغير الرتبة، لا يدرك ما يقوله تتابعت سخريات الضابط من الرجل وتربيته الأمريكية وابنته التى فتحت أبواب جسدها لمختلف الأهواء، تمنى الرجل أن تسقط دمعة، تمنى أن يصرخ، تمنى الموت.. لم يتمنى الموت إلا ساعة واحدة وكانت يومها سترتفع هامات أهله وذويه وتنعته بصفات البطل والشهيد، أما الآن فإنه يرجو الموت هروبًا وخوفًا من العيون، مازال الضابط متحركًا فى كرسيه وهو يحدثه والرجل تائه، صرخ الضابط بصوت مرتفع متسائلاً «ألا تسمعنى؟» عاد الرجل بعد أن ذهبت روحه لبعيد ويتردد أجابه بأنه يسمعه وكرر السؤال ثانية وسأله عن التليفون فنفى وأجابه بأنه لا يوجد لديه هاتف، ضحك الضابط ساخرًا وسأله ثانية «المحمول.. المحمول..» مادت الدنيا تحت قدميه والضابط يحدثه على مكالمات ابنته وصلاتها وجولاتها فى مجال الرذيلة.. لم يستطع... جلس على أقرب

مقعد ... صرخ الضابط فيه لم يمتثل لأمر الضابط ليس عنادًا ولكن لم تستطع قدماه احتماله ولم يعرف كيف يتحرك.

- ٨ -

بعد عشرة أيام من بداية معركة العبور تدفقت الأسلحة الأمريكية وكانت مازالت ببكارتها لم تمس ولم تستعمل من قبل... قدمتها وأرسلتها القوات الأمريكية لمساعدة العدو فتواصلت المعارك واستطاعت قوات العدو أن تقطع خط المواجهة فى منطقة البحيرات فعبرت للناحية الثانية للقناة وحاصرت سرية كاملة ثلاثة أيام متوالية والأبطال ملتزمون بمواقعهم ورغم ضرب مواقعهم طوال النهار، مصممون على النصر أو الشهادة وفى ظلمة الليل ورغم وابل النيران التى لا تنقطع يندفعون فى حذر مخترقين صفوف العدو ومدمرين لأحداث المعدات التى أسقطت جوا فى سيناء لتستأنف الحرب، صمم يومها أن يعود بهدية للقائد لم يأبه لتحذير فقام بمهمته وألقى بعبوته الناسفة فى برج الدبابة، احتمى بتبة صغيرة وخوذته وبعد الانفجار، أسرع أحد جنود العدو للهروب تأكد منه فى ضوء النيران المشتعلة،

تحفز وانقض عليه فى ثبات وقوة وبضربة واحدة وقع مغشيًا عليه، سحبه فى ظلمة الليل وتحت ستار النيران المتبادلة وصل لموقعه لم يصدق القائد عينيه وهو يرى الأسير، ابتسم القائد وهنأه وكانت البداية.من يومها ولخمسة أيام توالى هجوم الليل وأسر جنود العدو وفتح الطريق أمام المحاصرين، وهو والشيخ جوهرى وبطرس ثلاثتهم فى مهمة فتح طريق أمام إمداد المياه فى جنح الظلام تحركوا بأسلحتهم، استطاعوا تأمين الطريق وأطلقوا الإشارة المتفق عليها وتحركت قافلة المياه فى هدوء وقبيل الفجر وفى العودة اصطدموا بموقع للعدو، اكتشفوا موقعهم وتبادلوا النيران وانطلقت الطلقات الاستكشافية تستطلع وتكتشف موقعه، تسللوا واحد بعد آخر... حمى ظهرهم بطرس ومضى هو والجوهرى... تبادلوا المواقع ثانية فى الطريق... ولكن أصيب الجوهرى إصابة بالغة وأمرهم أن يمضيا، لم يستمعا لحديثه حملة بطرس فوق كتفيه وحمى هو ظهرهما... قبل أن يدخلوا الموقع الحصين انفجرت قذيفة فتناثر جسد كل من الشيخ جوهرى وبطرس ولم يعثر سوى على يد الجوهرى وهى تتشبث بيد بطرس فى صورة لن تمحوها الذاكرة يومًا من عينه..

جلس الرجل.. البطل القديم.. أبو ال... أمام حجرة السيد وكيل النائب العام الذى يتولى التحقيق.. تقدم شخص يبدو على مظهره علو الشأن وتبارى العاملون فى طرقات القاعة بتحيته ومن حوله عدد لا يستطيع تحديده من المحامين والمدافعين.. دخل الرجل مباشرة حجرة السيد النائب لدقائق وخرج.. مال صاحب المقام الرفيع على أذن مجاوره وتحدثا، وما لبثا أن توجها مباشرة تجاه البطل القديم.. توقف الرجل امتدت يد صاحب المقام الرفيع، صافحه، عرفه دليله بأنه الرجل صاحب الشركة التى تعمل فيها ابنته، شد صاحب المقام الرفيع على يد الرجل وبعبارات جميلة وابتسامة متسعة أخبره بأن يطمئن قلبه وسيخرجون اليوم وأنه وكَّل ما يزيد عن عشرة محامين للدفاع.. قال مجاوره بلهجة واثقة «لا تخف إن لم نجد وسيلة.. فأفضل وسيلة سندافع بأن تتم محاكمتهم طبقًا للشريعة وفى هذه الحالة سيطلق سراحهم نظرًا لأن الشرع الإسلامى حدد عملية الزنا.........» مادت الأرض تحت قدميه ولم يدرك ماذا يقول، هكذا يتلاعبون بما يريدون... اليوم بالبشر وغدًا بالدين... امتص لعابه الذى جف.. دس

المرافق للوجيه شيكًا فى يده.. وذهب.. فرك الشيك بين يديه........

- ١٠ -

صورة ابنته فى الجريدة، حتى من يجهل القراءة فى الحى اشترى جريدة يومية ليقرأ أو ليقرأ له ابنه أو ابنته، أحس بالعيون ترقبه حطم صورته ذات الإطار القديم وهو بملابسه العسكرية، ارتدى ملابسه العسكرية القديمة التى احتفظ بها لسنوات طالت وفوقها أثار الدماء.. حمل الأوسمة والنياشين التى نالها فى الحرب وضعها كلها فوق بزته.. وخرج يمشى تارة.. يجرى أخرى.. يصرخ.. يدعو بأسماء لا يدركها المارة.. بطرس.. جوهرى.. كل الزملاء الذين كانوا .. ذهبوا.....

مجنون البحر

ألقى بغطائه الرث جانبًا، تثاءب، نهض، فرك كفيه، جرى صوب الشاطئ، مسافة لا تعدو خطوات قليلة، ألقى ملابسه الرثة القطعة تلو الأخرى على شاطئ البحر، تقدم ببطء أول الأمر، رعشة أخذت جسده لفترة، داعب المياه، تقدمت الأمواج بسنها الأبيض تجاهه وكأنها تعلن عن ترحيبها به، احتضنته، قفز قفزات متتاليات، تعود جسده على المياه، أضحت دافئة، غطس تحت الأمواج وأخرى صعد معها، استنشق بعمق عبق الأبخرة الصاعدة، تمنى عدم الخروج، نظر صوب السماء، أعلنت الشمس عن مقدمها فى حمرة خدود السماء، أعاد النظر تمنى أن تتأخر بعض الشىء، نظر جيدًا، مازالت العشش بروادها مغلقة والخيام بدورها ساكنة لا حركة تبدو على الشاطئ،

أعاد النظر جيدًا، خرج مسرعًا، ارتدى ملابسه فى عجلة، التصقت ملابسه بجسده، أشجار النخيل صامتة، لكنها عربية أصيلة لم تنس العاشق فألقت إليه بعضًا من ثمارها الطيبة، جمعها فى نشاط، غسلها فى ماء البحر تشعب الماء خلال ثناياها الصغيرة اختلط الحلو بملوحة البحر، مسحها فى جلبابه الرث، أكلها بشهية، خلد للهدوء بعض الشئ أوقد النيران، صنع قهوة الصباح، رشف رشفات متتابعات فى نهم وما لبث أن هَّم واقفًا، ضرب بيده فوق صدره شبه العارى، أطلق صرخته المعتادة وكأنه إنسان الغابة، انطلق يجرى على الشاطئ، تفتحت العيون وأصغت الآذان وأعلنت الساعة قدوم النهار، خرج الأطفال مسرعين، اخترقت أشعة الشمس الذهبية الأرجاء وتسللت بين شجيرات النخيل السامقة المثمرة، انعكست فوق صفحة الماء أشعة الشمس فأكسبت الماء الأزرق جمالاً فاق الوصف، تسللت النساء إلى البحر، ظهرت السيقان والتصقت الملابس الخفيفة بالأجساد وظهرت الملامح شبه عارية ولكن لا تخوف فعينا مجنون البحر لا تهتم كثيرًا بتلك الأشياء، تحررن من-قيد العيون المراقبة فانطلقن فى سعادة، وانطلق هو الآخر فى دنياه، أحس أن هناك بقية باقية مازالت

نائمة، انطلق صوته مماثلاً صوت قطار وأخرى صانعًا نفير سيارة وأخذ يعدو فوق الشاطئ، جرى الأطفال خلفه، جفت ملابسه، ذهب الأطفال لتناول إفطارهم، ذهبوا إليه بالطعام، اهتزت رأسه شاكرة كعادته دائمًا، زحفت ومن خلفها جيوشها، ابتسم، نفخ فى النار بشدة، انتشرت الأغنام بين شجيرات النخيل تلتقط الثمرات وبقايا الأطعمة، أمسكت بقدم واحدة معينة وأمسك بدوره رأسها أخذت تحلب منها اللبن، قدمت حسناؤه البدوية يدها إليه بوعاء اللبن، اهتز بعنف بين يديه، شكرها بعبارات لا يفهمها سواها، نظر إليها بثوبها الأسود المطرز الجميل وحزامها البنفسجى، رفع عينيه للسماء، جلست بجواره، امتدت يداها للنيران تبغى الدفء، أخذ ينفخ فى النيران، اشتعلت ولكنها لم تبق طويلاً، تكاثر الدخان، كرر المحاولة من جديد، وضع الإناء وسط النيران، اختلس النظرات إليها، أخرج من بين ثنايا جلبابه بضع ثمرات، تردد فى تقديمها، أحس فى عينيها قبولاً، جرى صوب البحر غسلها بعناية فائقة ومسحها مرات فى جلبابه، وجلس بجوارها وهو يلهث، أودع الثمرات يدها، ابتسمت، تمنى أن تنفجر ثنايا جسده، لترى كم سعادة هو فيها، سرح فى دنيا أخرى

عبر ابتسامتها الفياضة كاد اللبن ينسكب، أسرع ممسكًابالإناء، قدم الإناء إليها، أعاده من جديد، استخرج إناء آخر أكثر برودة، سكب اللبن كله فيها، شربت منه ووهبته الباقى، ودعته، انطلقت تجمع فلول جيشها وتنطلق من فمها صفارًا، لم يمض وقت طويل وكانت قد استجمعت الأغنام، عيناه ترقبها، حاول أكثر من مرة مساعدتها لم يفلح ولم تستجيب الأغنام لندائه المتكرر فعزف عن ذلك، نظرت إليه وانطلقت يحفظ موعدها جيدًا، ما تخلفت عنه يومًا حتى فى أيام الشتاء الممطرة الباردة.

***

كانت الأيام الأخيرة فى الصيف، أيام الصيف هى سعادته، الأطفال من حوله، الجميع يغدقون عليه، أيام تمضى وتنفرج السماء عن سحب متفرقة لا تلبث وتكثر، يدخل الشتاء، تتوارى الخيام، تظل العشش قائمة يمتلكها بمفرده هو والكلاب الضالة تأتيه كعادتها لم تخلف يومًا، ينتظر قدوم الصباح وما أن تمضى بعد إفطارها، يهرب فى طرقات المدينة يجوب الأرجاء، تتقاذفه ألفاظ الصبية الذين لم يتعودوه وينعته الكبار بصفات الجنون وابتسامته

العريضة لا تفارق شفتيه، معتاد هو ذلك، يدعونه لبيوتهم يهرب بمجرد أن يدخل، يعود لدنياه الواسعة، يشاهدونه، يتألمون يتمنون له الموت، بعضهم يغضون أعينهم عنه ومرات يأخذونه عنوة للبيت، يحبسونه أحيانًا تطالبهم أمهم العجوز أن يطلقوه، تجلس فى فناء الدار الفسيحة ذات الرمال الصفراء النظيفة، تأخذ رأسه فوق ساقها العجوز الممتلئة بالحنان، يغفو فوق الرمال، يصحو من جديد يهرب، يذهب لمكانه المعتاد تجذبه نداءات البحر الهادرة، يخترق الدروب والأزقة، يتوارى عن عيون الشباب الذين يتخذون منه أداة للسخرية وقضاء الوقت، فى المساء بعد حكايات قد تطول بينه والبحر، يتكور فوق فراشه، تخترق نسمات المساء الباردة أجزاء جسده، تلتصق ساقاه بصدره، يطرق الرعد أذنيه ويومض البرق فلا يتحرك من مكمنه، حبيبات الأمطار تتساقط، طرقاتها قوية ولكنها سيمفونية تعودتها أذناه يهيم بها وكثيرًا ما يخرج فى الخلاء ليمتع نفسه بسقوطها فوق رأسه.

****

اجتمعوا حول موقد النيران، أكبرهم لم يدر كيف يتطرق

للحديث، العجوز تجلس بينهم، تحس اجتماعهم غاية، لم تجد الطريق للحديث فاكتفت بالتسبيح بمسبحتها، تململ أصغر أحفادها فوق فخذيها، تمتد يدها فوق رأسه وتدعو فى سرها بقراءات وأدعية، تمتد يديها للنيران تدفئها وتعود بها على رأس حفيدها وجبهته، قطع الصمت ابنها البكر.

- ماذا نفعل يا أماه؟ الأرض ستدر مبلغًا كبيرًا يفوق الوصف فموقعها على البحر مباشرة كثيرون عرضوا علينا شراءها، ما نكسبه من بيعها كفيل لكل منا بعيشة راضية سخية وكل جيراننا باعوا أراضيهم وكما ترين كيف أصبحوا... قاطعته.

- وماذا تريد منى يا بنى..؟

- نريدك أن تباركى... لم يستطع إكمال عبارته فقد لمح فى عينيها حزن، تنهدت قائلة.

- أش أسوى... يا أبو أحمد... أنت ولدى الأكبر... أنت مكان أبيك الله يرحمه.

- المجنون... المجنون... يا أماه...، نظرت إليه بعنف، دعت والدة حفيدها لأخذه تفرست فى وجهه ثانية، تمنت

أن تصفعه على وجهه، استشعر بخطأ مقولته، حاولوا أن يرفعوا عنها ألم تسبب فيه، انطلقت دمعتان صغيرتان فوق الوجنتين الضامرتين، مسحتها بسرعة خرجت من دائرة الدفء بعد أن تراجعت للخلف، عادت لمسبحتها، أفاضوا فى الحديث استطاعوا أن يرفعوا عنها الألم، أخيرًا اقتنعت برأيهم، قلوبهم مادت أن ترقص من الفرح لم يظهروا هذا أمامها، كل منهم ذهب فى حساب كم ستدر الأرض، كم سيكون نصيبه من أمانيهم التى ستتحقق، أفصحت أمامهم عن أمنيتها الوحيدة وهى حج بيت الله الحرام، كل عرض نفسه فى خدمتها والسفر معها ليقوم على خدمتها، تاه منهم سؤال، نسوه جميعًا تذكروه ولكن كيف الطريق للحديث عنه، المجنون ميراثه سيكون ضخمًا، أين سيذهب به؟ قطعت حبل أفكارهم جميعًا قائلة بأن باقى نصيبها من الأرض سيكون من نصيبه.... ثارت نفوسهم غيظًا ماذا سيفعل بكل هذا؟ تبادلوا النظرات فيما بينهم، لم يستطع أحدهم أن يتحدث بكلمة واحدة، نصيبه بمفرده يوازى ضعف أى منهم، عض أوسطهم على أسنانه ولم يشعر بنفسه قائلاً... أين سيذهب بكل هذا؟ لكنهم أسكتوه... بعيدًا عن الأم استعرضوا إمكانية إيداعه مصحة أمراض

عقلية... سترفض الأم... يحبسونه فى البيت... إنه عار على الأسرة... إنه محل سخرية الجميع... إنه لا يتناسب ووضع الأسرة الاجتماعى... هل يستطيع أحدهم أن يجعله يعيش معه؟ تذكروا زوجاتهم.

****

أقاموا سياجًا، امتد السياج لداخل البحر، أوقفوا جولاته، أحالوا بينه وبين الجرى فوق الشاطئ صرخ بأعلى صوته، السماء تمطر، واصل صراخه، ضحكوا منه، سخروا، ألقوا بدعاباتهمْ الثقيلة عليه، لم يأبه لسخريتهم، دنياه بعيدة عن دنياهم، أخذ يلقيهم بوابل الحجارة الصغيرة، ابتعد العمال، واصلوا عملهم، لم يعيروه اهتمامًا، توقف القطار أمام السياج... تعب... استند بظهره للسياج، وضع رأسه بين ركبتيه، انخرط فى البكاء، الأمطار تتساقط.

توقفت سيارة البوليس، أسرع شرطيان إلى مكمنه، لم يتحرك، حاولا جذبه، لم يتمكنا منه، اشتركًا بمساعدة العمال فى رفعه عن الأرض، استسلم لهما آخر الأمر، ألقوا به فى حجرة الحجز حاول أن يأخذه أحدهم وسيلة للهو

وقطع الوقت، لم يتفاعل معه، عنفه ثم تركه، أشعل أحدهم سيجارة وقدمها له، رفضها أول الأمر، نفث دخانها، سعل بشدة، ألقاها فى وجهه، حاول ضربه، حاولوا بينهما، تقدم أحدهم، خلع معطفه ألقاه فوقه، ألقاه بعيدًا، اتخذ أحد الأركان ملاذًا، أسبل جفنيه، ذهب فى سبات، صنع جناحين كبيرين لصق جناحيه بالغراء، صنع ذيلاً كبيرًا تحرك جناحاه بقوة، ضرب الهواء بشدة، أخذ يعلو، أخذ يطلق صفارته المعتادة، لم يحل السياج بينه والطيران فوق الشاطئ الطويل، أتاه صوت الأطفال من تحته، تمنى أن يشاركهم اللهو لكنه اكتفى بالمروق فوق الشاطئ، سعادة غامرة، حال السياج بين الأطفال وبينه، تألم، عاد أدراجه عاد يرفع كل طفلين معًا ويسبح بهما فى الفراغ ويعود ليحمل اثنين آخرين.

****

صوبوا أبصارهم لحركته المرتعشة القوية، هزه أحدهم بعنف، صحا من غفوته، لم يجد جناحيه، وجد نفسه فى ملابسه المبتلة، ذهب الجناحان كما ذهب الذيل، أخذ يبكى فى عنف، هاج وقامت ثورته، انفرج الباب، تقدم الشرطى،

بصفعات متتابعة فوق وجهه أعاده لصوابه، لزم الهدوء تكور من جديد فى ركنه القصى، عاد الباب للانفراج، تقدم نفس الشرطى، ازداد تكوره، ارتعشت أطرافه، نظر إليه فى توجس وخوف، امتدت يده إليه، حاول الإفلات من بين براثنه لم يستطع، انساق تحت إمرته بعد أن تشبث بالأرض، أخذ الشرطى يلعنه ويلعن جنونه، هدأ ضابط الشرطة من ثائرته بعد أن دفعه الشرطى بقوة، نظر أخاه إليه فى تقزز، تمنى له الموت، دفعه أمامه ألقاه فى السيارة ومضى...

هل قفز من السيارة؟ أم دفعه أحدهم!! مات.... صنع الجناحين... والذيل وطار.

دماء بلا ثمن

الشوارع تعج بالبشر، العيون تتحرك والحناجر تهتف بسقوط صاحب فكرة السلام مع إسرائيل، اللعنات تتساقط فوق رءوس المصريين، الإذاعة تبث إرسالها صباحًا ومساء ولا حديث إلا عن الرحلة... سلام... ليسوا أصحاب سلام إنهم يعشقون القتل، المصريون جبناء... فراعنة... ليسوا عربًا.... لتنتقل الجامعة العربية من القاهرة.. جبهة الصمود والتصدى، انتشرت فى كل الأنحاء العداء لكل ما هو مصرى.. الأغنية المصرية... الأدب المصرى... المعلم المصرى.... العامل...

خرجت الصحف والمجلات فى صدر صفحاتها الأولى أحاديث جارحة، لم يتستر أى من أصحابها بالحياء، فى لحظة واحدة قتلوا كل الأشياء الجميلة... نسوا كل ما

قدم.. ساقوهم.. الكلمات صبغت بالدم، الأناشيد المرددة متحفزة تنشد عداء لم يهتم بكل ما يجرى حوله، فى قلبه غصة وفى ماضيه ألم.. لكن لم يدر كيف يتفاعل... تذكر البداية ولم يصل للنهاية.

ذهب فكره يطوى الأيام السالفة سريعًا ويتذكر كيف كان يوم الخامس من يونيو!! ساعات قليلة وتبددت كل أحلام الشباب، سقطت كل الزهور اليانعة، لحظات وانزوت كل الأفكار الثورية، هجمت الطائرات، ألقت بحمولاتها حولت الدنيا حولهم إلى شعلة من النيران الملتهبة، أطاحت بالرءوس وفجرت القلاع والحصون المشيدة فى قلوب صاغتها ادعاءات القوة والعظمة، تناثرت الأعضاء، من بقى حاول أن يسترد فكره الشارد، حاولوا أن يعيدوا الكرة لم تسعفهم ذخيرة ولم يجدوا المعونة، بعثوا بإشارات استغاثة ولم تعاودهم إجابة، تكاد رأسه تتفجر بما يعتل داخله، يسبل جفنيه رغم مضيه فى الطريق...

وجد جمعًا كبيرًا من حوله، دارت عيناه تستطلع، كل الوجوه غريبة عليه، لم يعرف أصحابها.. الوجوه شاحبة رغم الابتسامة المصنوعة فوق الوجوه تبلغه بأنه كان قاب

قوسين أو أدنى من الموت وتحمد الله على شفائه، حاول أن يتحرك لم يستطع، طالبوه بالاسترخاء، لم يشعر بقدمه، كانوا مجموعة من البدو الرحل، كان أغلبهم كبيرًا فى السن، عرف من حديثهم الدائر أن الشباب قبض عليهم جند الاحتلال وأودعوهم السجون، ألبسوه من ملابسهم، قامت على تضميد جراحه عجوز طيبة، تحدثت إليه كثيرًا ولم يفهم بادئ الأمر منها الكثير، مر به الوقت فألف حديثها، وعندما يهل الصباح لا يجد أيا من الرجال والشباب كانوا يذهبون بعيدًا خوفًا من عيون قوات الاحتلال فى أماكن متفرقة بين شعاب الجبال المجاورة، والنساء يقمن على الرعى، عرف موضعه وموطن إقامته، تعرف على المنطقة جيدًا فهى قريبة من «الجفجافة» وعلى بعد عشرين كيلو مترًا تجاه الشمال كان يوجد معسكرهم الذى دمر عن آخره، علم منهم كيف وجدوه بين الحياة والموت، العجوز تحتوعليه وتخبره بأن ابنها استشهد منذ أحد عشر عامًا سالفة فى الحرب الماضية تنهمر دموعها وهى تضمد جراحه، يتذكر زملاءه الذين ذهبوا ...... لا يدرك أين؟ هل استشهدوا؟ هل أسرتهم قوات الاحتلال، تنحدر دموعه قسرا، رغم دموع العجوز الهابطة، ترفع

برقعها المحلى بمشغولات فضية حول وجهها فيبدو وجهها وقد ارتسمت فوقه تجاعيد السنين، تتعرج مسارات الدموع تبعًا لتعرجات شقوق وجهها، تحدثه بقوة غريبة، تطالبه أن لا يبكى ثانية أمامها، يئد دموعه، تهزه كلماتها وهى تخبره بأن الأرض عائدة والغد قادم.

يتذكر المكان جيدًا، بيت الشعر الذى يقيم فيه بجوار بيت الشعر الذى تقيم به العجوز فى مكان يطلقون عليه اسم «السرداب» وهو عبارة عن منخفض بين الجبال المحيطة تتناثر فيه أشجار النخيل وأشجار اللوز والخوخ وبعض الخضراوات وبئر لم ينضب ماؤه، يومها يوم وضعت الحرب أوزارها، كان حديثًا فى التجنيد لم يكمل شهرًا واحدًا ودفعوا به للصفوف الأمامية، كانت سعادته لا تفوقها سعادة، لم يمض وقت كاف، حتى أسماء زملائه لم يتعرف عليها جميعًا.. فقد كان حديث العهد بهم، تمضى به الأيام فى أحضان بيت الشعر وتحت رعاية العجوز الحانية، وعندما يحل المساء تعود النساء والفتيات من رعيهن وتشق أرجاء السكون أصوات الإبل والأغنام والماعز فتدب الحياة ويتسلل الرجال خفية من دروب متفرقة يدركونها جيدًا، يبادلونه الحديث ويبادلهم فى كلمات موجزة قصيرة، لا

يدرى ماذا يقول لهم هل يشاركهم؟ فى عيونهم حزن كبير وفى حديثهم ألم وبركان محموم، يتحاكون عن القتلى والجثث المتناثرة فى أرجاء الصحراء، يقصون عن بطولات نادرة، يتناوبون رشف القهوة وينفثون دخانهم الأخضر الغريب من سجائرهم التى يصنعونها بدقة بالغة بأيديهم، يسمع عن الأعداد التى ساقها جنود الاحتلال للسجن، الإصرار فى حديثهم على إكمال المسيرة، أمانيهم فى النصر أو الشهادة، أضحى يجيد لغتهم جيداً، ملابسه فى نفس ملابسهم، يتذكر ذكرى فتاته البدوية التى تعلقت به وبها تعلق فؤاده، تذكر عينيها الغازيتين لمعاقل قلبه، كم تصنعت المرض والتعب حتى لا تخرج للرعى، جلست إليه، تناولا أحاديث كثيرة، قص لها عن حياته كلها، جلس كثيراً يعلمها القراءة والكتابة، رفعت برقعها من فوق وجهها كم أرقته وأسهدته فى ليله، تلامست أيديهما وتعانقت أصابعهما، نسى جراحه التى كانت، كست عينيه بفيض جمالها البرىء بكلماتها الندية، بعذرية أفكارها وشفافية قلبها، كما تمنى أن يأخذها بين ذراعيه، لم يعرف من قبل معنى للحب، كان تواقاً لأن يعيش الحياة بكل ملذاتها، كثيراً ما سبح فى مداعبات رخيصة فاجرة من قبل، أما هى

فكانت طينة أخرى وفيضًا غريبًا فوق جوانب قلبه.

يمضى فى الشارع الكبير، يسمع اللعنات الملقاه فوق رأسه وكل المصريين أمثاله، تكاد تطفر من عينيه الدموع فيئدها بسرعة، يسمع لهاث كلماتهم وأبواق حناجرهم، مظاهرات تطوف الشوارع، معلقات تزين جدران المبانى، الميادين كلها مغرقة بالألفاظ والكلمات الجارحة، يضحك فى نفسه، يتبارى الجميع بملصقاتهم وكلماتهم الملطخة التى تساير ركب السلطة وما تريد، معلقات، يتصارع أبناء العروبة فى تجنيد حروف كلماتها، يبتسم فى مرارة.. يتذكر تراثنا من شعر غلب عليه الهجاء، يتسارع نبض قلبه الجريح، يمضى بذهن غير صاف، يلج دروب الذكرى فيتذكر «ذكرى» كم يود البكاء مشاعر متناقضة غريبة بل مفترسة تكاد تنهش جسده المهترئ بالأحداث تحيى فى نفسه الذكرى، انتصف الليل وهو يسير على غير هدى، مازالت المدينة صاخبة بكلماتها وعباراتها وهجماتها الشرسة فوق الحوائط والحوانيت، داخله بركان يلعن الحرب ويتمنى أن يعود لذكرى، يومًا ما ويعود يتذكر الأيام التى مضت وانقضت، أين هى...؟ ذهبت؟..!! داخله إنسان يعشق الحياة، كم من موت حاق به؟، كيف تم تهريبه؟ كيف

مضى فى ظلمة الليل بين الجبال مع مرشده؟، كما تحمل هؤلاء المرشدون من البدو وأبناء سيناء من صعاب وهم يهربون الجنود المصريين تحت ستار الليل، أبطال نجمة سيناء يقضون النهار بين شقوق الجبال وشعابها وفى المساء يأخذون طريقهم ويمضون مجموعات قليلة لا تتعدى المجموعة خمسة أفراد، من الجفجافة حتى الحسنة ثم إلى بئر العبد حتى الطريق الأوسط فى سيناء، كما تقابلهم فى طريقهم بقايا الجنود .... هياكل.... لم يتبق منها سوى عظام فحسب.

دوريات إسرائيلية تجوب الأركان، تحتبس الأنفاس وتسمع دقات القلوب، رحلة يتذكرها الآن للحظة، واللحظة يومها بعمر كامل، يودعهم أبطال نجمة سيناء ويعودون ليواصلوا مهمتهم التالية، وفى منطقة القنطرة شرق وبعد عبور سهل الطينة يكون فى استقبالهم قائد آخر من الأبطال يتحين الفرصة وعندما يحل المساء يعبر بهم قناة السويس فوق إطارات السيارات الداخلية، ويلحقون من جديد بوحداتهم العسكرية بعد أيام طويلة وتحت الرعاية المكثفة.

فى الواجهة المقابلة وأمامه مباشرة تطالعه صورة مرسومة لجندى مصرى راكع يستجدى يهوديًا وكلمات مكتوبة أسفلها تتحرك حروفها وكأنها خنجر مصوب إلى قلبه فيهتز وترتعش فرائصه فيدور فى فلك أيامًا بل سنوات ما بين الاستنزاف ليوم العبور العظيم.. يتذكر كيف كان الجميع يتحرقون شوقًا للحرب، كيف كان كل منهم يتمنى الشهادة يتذكر تدريباتهم العنيفة الشاقة فى جوف الليل أو فى وهج الظهيرة، عمليات الإنزال خلف خطوط العدو وكيف يتبارى الجميع فى خوض هذه المهمة، كم من مهام وفقوا فيها وعادوا مزهوين بنصر، كم من مهام لم تتوج بالتوفيق وتوج الأبطال بشهادة فى سبيل الأرض والوطن، كيف كان بعد كل عملية ناجحة يقومون بها تثور ثائرة العدو فيقذفهم بمتفجرات محرمة دوليًا، وكثيرًا ما نال المدنيين أيضًا دمار وخراب، يتذكر «بحر البقر» وتلاميذ مدرستها، يتذكر عمال أبو زعبل.

يتذكر ضرب الأبرياء وثورتهم والنيران المتقدة فى جوف كل منهم للعبور للمواجهة الحاسمة، ويأتى اليوم المنتظر وينطلق النسور ويحلقون فوق الرءوس فتشرئب الأعناق، وتنزاح الغمامة، ويتبارى الجميع، وتهتز أرجاء المكان ويتدفق

الدم فى الشرايين، يتذكر الأشلاء التى تناثرت والليل عندما يتلون بلون الدم، والدماء التى غطت وجهه، والدخان الكثيف الذى يحول بين أشعة الشمس وأرض المعركة... يذوب فى دوامة الأفكار يسبح فى ساحة جلجلت فيها كلمة واحدة «الله أكبر.. تستطيب نفسه الذكرى فيرفع رأسه فتصطدم عيناه بالكلمات والعبارات يحسها كنقوش طفل فوق رمال على شاطئ بحر، تتقدم خطاه فى الشارع الطويل وعيناه هناك تستتجد بما كان، لم ير يومه إنسانًا يعود أدراجه للخلف لم ير يومها إنسانًا راكعًا يستجدى الحياة، لم يجد عينًا غافلة، سواعد تحمل أسلحة ثقلها ينوء بحمله حمار، كل يتقدم كل يجود بحياته، كل يعبر، نشوة غريبة فوق الوجوه، ومضات كالبرق، همسات عنيفة كالرعد، قبس من نور فى ظلمة جهل، شارع طويل يموج بعبارات لا تدرك ماهية النصر وأهمية الحياة حناجر تتسابق فى صلف وغرور تتشدق بكلمات ببغاوية...

اصطدم بها، حاول أن يبدى اعتذاره، نظر لعينيها، نفس عينى (ذكرى) حبيبته البدوية، ابتسمت وانفرجت شفتاها، هى نفس الشفاه وذات الابتسامة، لم يصدق عينيه.. بادرته..

- ذاهب بفكرك... إلى أين..؟ لم يخذله لسانه ولم تستبد به المشاعر المتناقضة فيما يحدث وما حدث فرد بسرعة قائلاً...

- إلى عينيك.

ضحكت بشدة ومالت برأسها للخلف فسافر فؤاده للحظة فى (ذكرى) وشعرها الأسود الطويل الفاحم.. لهجتها البدوية وهى تقاربها فى مخارج ألفاظها وتناثر حروفها.. استجمعت نفسها قائلة.

- عيناى قريبتان.

- بل كنز من ياقوت ومرجان.. يالحن طالع من يحصل عليهما وأين أنا من هذا؟... جزلت بكلماته.. وسألته من جديد.

- غريب أنت؟

- بل حبيب تائه. سافر حبيبه وظل وحيداً.

- وماذا تريد؟

- حبيب أبثه هواى وشكواى.

- قريب منك..

- ليتنى أكثر قربًا..

- ألا يكفى.

- حتى يشعر قلبك بوهج نيران قلبى.

خرجت كلماته تعبث بالمشاعر وكانت بدورها مدربة فى درب النشوة والنزق فارتسمت فوق شفتيها ابتسامة دعوة، فعلت وجهه علامات ترحيب، يتروى وينشد سعادة.

استسلم لقيادتها، مضى عابثًا بكلمات ومداعبًا بغمزات، لم يحفل ولم يتراجع، غريبًا فى تصرفاته، هل أرهقته الحرب التى خاضها؟ يعلم أنهم نازيون فى عواطفهم، ملثمون بعادات، لم تهتز فرائصه فاغتنم الفرصة وأقبل، مقل هو فى تصرفاته الهوجاء، ليس بالرجل الشبق الذى يلهث وراء نداء، هل هو ماض معها ليدفن معاناته أم ماض ليزيح عن كاهله عبء ذكريات وحوادث؟ أو مسافر يستجدى عشقًا لحظًا يبثه همومه؟ قطعت خيوط فكره المتردى فى الذكرى...

- ماذا تشرب؟

بلا تردد أجابها.

- عصير شفتيك... بلهجة ماجنة خليعة استطرد

- ما أحلى الفراولة.

تبادلا الحديث، عرفت أنه مصرى، استرسلت فى حديثها عما يجيش بقلوب الشارع وجبهة الصمود.. غرقا فى الضحك.

كلمات داعرة فاجرة، خرجت كلماتها كزمجرة الريح، كعاصفة ملتهبة، يتأمل شفتيها، تتدفق حروف كلماتها كسيل متهور لا يعرف للزحمة معنى ولا للنقاء صورة، سيل يجرف فى طريقه كل إبداعات العالم ورقيه، كم هى رخيصة كألفاظها، رخيصة كجسدها!! يبتسم ويتمنى أن يصفعها ولكن لا يتجاسر فى تأفف تسبح عيناه وتغامر فيرى حركات يديها وتشنجات أطرافها، لم يتوان، بركان ثائر داخله، لكنه يكبح جماح حممه، صنع ابتسامة، لثم شفتيها سكنت ريح ثورتها بعض الشىء رشف من كأسها الممدودة إليه وغمز لها، لم تستكن، عادت تصف معركة السادس من أكتوبر بكذبة كبيرة، مصمص شفتيه وبلع كلماته ثانية، أومأ برأسه مستجيبًا لحديثها، أراد أن يحول دفة الحديث لجهة مغايرة، بعد عناء ومداورة أشار عليها أن تستعد للنزال فى

ساحة العشق، ضحكت بشدة فاهتزت أرجاء الحجرة ونفرت معها شرايين فؤاده، استجابت لإشارته، فى دلال مصطنع صاحبته مدربة جيداً أخذت تلقى بقطع ملابسها الواحدة تلو الأخرى، لكن لا تعرف شفتاها الصمت، وكان حديثها يواكب حركات يديها بقطع ملابسها وتفيض بقول عن حرب أكتوبر فهى حرب متفق عليها بين مصر وأمريكا وإسرائيل - تتناثر قطع ملابسها، تلقى بها فى الهواء فى حبور وعبث، تعوده لحظة الموقف الكبير مع كل قطعة تتعلق بها عيناه يتذكر أشلاء الأبطال المتطايرة بفعل الدانات.. هذا متفق عليه.. تطير قطعة من ملابسها الداخلية ذات لون أحمر فاقع فيذكر الدماء التى تفجرت وغطت الوجوه من حوله، يتذكر القلوب التى توقفت عن النبض، آهة عميقة عمق جرحه الغائر يئن فى وجع مهموم وهى تبتسم فى لهو مجنون... فى ساحة الوغى لحظات عشق للموت وفى لحظة العشق تغفو العين تستحلب النشوى، وفى لحظة عشقه تعربد ذكرياته فتتردى فى متاهات الأمس العابق بذكرى الذكرى... يكبح جماح نفسه، يتصنع النشوى، ينتشى ويفيض الوجه عن ابتسامة غريبة، تطير قطعة من ملابسها فى الهواء، يقوم من مجلسه يقبض عليها قبل أن

تهبط للأرض، يفيضان فى الضحك، يستلقيان.. هى على المخدع الطرى وهو فوق مقعد مجاور، تسأله بعد أن تجردت إلا من ورقة صغيرة.

- هيا... يتصنع الغباء ويردد:

- ماذا...!!؟ تضج بالضحك.

- للحرب... للمعركة الحقيقة... يضحك بشدة ويسعل ويعاود الضحك.

- نعم.... إنها ملحة.... ما أعظمها معركة....

- معركة متفق عليها... أنا.... أنت... أليس كذلك؟ كم ثمنها؟.

يخرج حافظة نقوده ويستطرد... درهم... دينار... جنيه.... ريال.... ليرة.... أم.... تضحك بهستيرية وتغمز له بعينها قائلة.

- دولار.... يصمت.... تتسع حدقتا عينيه....'يبدو منظره غريباً تعتريها دهشة من مسلكه.. يصيح:

- أنت عميلة... أنت خائنة... تتعاملين مع القوى الرجعية والصهيونية العالمية.... أخذ يقلب جنبات الحجرة قائلاً....

أين أجهزة التصنت؟ أنت... لم تتركه يسترسل؟ أسرعت ووضعت يدها فوق فمه...

- حرام عليك... أنت مجنون... سأذهب وراء الشمس.. لا أبغى منك شيئًا....

أخرج ورقة مالية وألقاها إليها... خرج وهى فى ذهول... صفق الباب خلفه بشدة، أخذته نوبة غريبة من الضحك...

ليلة لم يعرف النوم طريقه إلى جفنيه؟ ذكريات تتناوب، وأحاديث تتردد وصفعات تعزف سيمفونية جنائزية وأبطال تلفظهم كلمات مبتذلة من شفاه غارقة فى الوحل؟ تمنى أن يبكى... وكأن الدموع... جفت... ذهبت... بكى كثيرًا قلوب كانت تتحاكى بالعشق ولفظت أنفاسها بين يديه؟ بعد الحرب أودع مصحة عقلية كانت نوبات تأتيه قسرًا عنه، صَوَّرة زملائه الأبطال لمدة عامين متتاليين، خرج للعمل، مرهقًا كان، وعازفًا عن مباهج الحياة، زاخرًا قلبه بالحب والخير والألم... داعيًا الله أن يعود قابيل وهابيل فيتحابا، أن يسطر تاريخ جديد للبشرية... نزح عن الدنيا بأفكاره التى لا يحسها إلا أمثاله ممن خاضوا حروبًا.

(١)
(من فضلكم.. أطلقوا الجياد)

لم ينل قسطًا من التعليم، كان موفور الصحة، طيب القلب مسارعًا فى خدمة الجميع، لم يحصل على الشهادة الابتدائية، لا يتخلف عن فروض الله، محبوبًا من الجميع، طيب السريرة، تعرف إليه منذ هبوطه لتلك المدينة الصغيرة، أحبه الأستاذ شريف، كان شريف غريبًا فى هذا البلد فهذه أول مرة فى حياته يذهب إلى صعيد مصر، لا يعرف الكثير عن عادات هؤلاء القوم التزم بعمله فى المدرسة الثانوية المشتركة، أحسن الجميع استقباله وتقدم أكثر من زميل من أبناء البلد مرحبين به ومستعدين لأى طلبات، شكرهم جميعًا، تلقى دعوات كثيرة مرة لغداء أو عشاء، استطاع بمساعدة درويش أن يجعل من شقته الصغيرة مكانًا جميلاً حاول أن يهب درويش شيئًا من المال

أبى بشدة، كان درويش غريبًا فى تصرفاته فلا يمكن أن يتناول طعامًا رغم أنه كان يقوم بشراء كل طلبات شريف بل ويساعده أحيانًا فى إعداد الطعام، بمرور الوقت استطاع شريف بأسلوبه الطيب ومعاملته الحسنة أن يغير بعضًا من خصال درويش فتناول معه الطعام وشاركه أحيانًا فى حديث ودى.

تمر الأيام ويحس براحة عميقة ويعكف شريف على استكمال رسالته للماجستير فى هدوء وترتيب، وإن حضر درويش ووجده مشغولاً قد يعد له فنجان الشاى ويجلس هادئًا أو متصفحًا كتابًا أو مجلة ولا يقاطعه أبدًا، فجأة اختفى درويش وسأل عنه أكثر من مرة لم يعرف له طريقًا أو مكانًا، لم يكن درويش بمفرده بل كانت وجوه عديدة اختفت، التلاميذ فى المدرسة كانت لهم بعض الأفكار الغريبة المشوشة فى الدين وفى العلم والأدب كان أحيانًا يسمع آرائهم ولكنه لا يبدى اهتمامًا، عرف إن التلاميذ واقعون تحت تأثير ما، حاولوا يومًا أن يقيموا الحد على أحد الأساتذة لأنه تحدث فى اللغة العربية ببعض أبيات من أشعار «أبو نواس» وأن هذا الأستاذ أيضًا له علاقة غير شريفة مع مدرسة فى المدرسة يضحك مما يحدث ولكنه لا

يعلق بشىء، بدأت بعض مناورات بين التلاميذ وأجهزة الأمن فى المدينة وألقت قوات الأمن القبض على بعض التلاميذ فى المدرسة وكانوا رهن التحقيق، فى وسط هذه الحوادث يعود درويش من رحلة غريبة، يذهب إليه مباشرة فى المنزل ولكن فى الظلام، لحية درويش طالت وقصر جلبابه ومن أسفله بنطلون من نفس نوع الجلباب وفوق رأسه عمامة بيضاء وفى يده سبحة طويلة، احتضنه جلس إليه يحدثه بحديث غريب، درويش يتحدث عن الدين بصورة غريبة، يدعو لجهاد، درويش طيب القلب، جاراه شريف فى الحديث وحاول أن يصحح بعض أفكاره لكنه لم يستجب له، كان واقعًا تحت تأثير أقوى، قص عليه أشياء غريبة قالوا له «أنت مثل الفاروق عمر بن الخطاب» حاول أن يغير بعض المفاهيم لم يقتنع، ربت على كتفه ولم يكلف نفسه عناء حديث طويل ربما تكون نتيجته عكسية عليه، خرج فى الظلام كما دخل قبلاً..

لم يمض يوم واحد، قاد درويش مظاهرة كبيرة، تقدم الصفوف بعوده الفارع وصورته الجميلة ورأسه الفارغ المعبأ بأفكار لا يدركها جيدًا، تقدم وظن نفسه بطلاً مغوارًا، حمل عصاه التى تفوقه طولاً وندد بالحكومة وهتف بسقوط

النظام، حاول رجال الأمن أن يفرقوهم، أخذتهم ثورة وتزعم درويش الجموع ووقف ضد رجال الأمن، أخذته الأفكار التى بثت داخله بعناية، حاولوا أن يمسكوا به، لعن الحكومة ورفع عصاه وما لبث أن أخرج مسدسًا من بين طيات ملابسه فأطلقوا الرصاص، عليه وقع مضرجًا فى دمائه حمل بعضهم جثته وطافوا بها شوارع المدينة مهللين مكبرين، ألقوا فى نفوس الناس أن رجال الأمن قتلة والدولة كافرة والناس أغلبهم يعرفون الطيب المقتول كسبوا الجولة يومها..

بكى كثيرًا على درويش ولعن الذين لقنوه الدرس الخطأ والأفكار الغريبة، تغير الحال كثيرًا عما كان عليه منذ أتى من شهور أحس بأن التلاميذ فى حاجة ماسة لمعلم حقيقى معلم لا يخاف فى الحق لومة لائم يحدثهم ويحدثونه بملء أفواهم، يجادلونه ويترك لهم حرية المناقشة، تتغير الأحوال وتحدث حركة تنقلات فى المدرسة ويأتى مدير جديد للمدرسة، من تلك النوعية الجوفاء المتسلقة التى لا يهمها سوى الحفاظ على كرسيه فحسب، فكان متملقًا ومنافقًا منذ توليه منصبه وقدم قائمة بأسماء بعض المدرسين للجهات الأمنية وكذلك بعض الطلاب.. يتحدث كل صباح

للتلاميذ بكلمات متفجرة بالعشق للنظام وللجمهورية وكأنه كان حريصًا على أن يسمعه رجال الأمن رغم أنه لأسرة مرموقة ينتمى وعائلة ذات شأن..

حاول شريف بلباقة أن يحدثه بأن الطلاب من حقهم أن يتحدثوا وتسمع آراؤهم للتعرف على أغوار نفوسهم، وكانت تلك البداية فأخذ منه موقفًا وصاح فى وجهه «إياك وهذا الكلام الفارغ» وكانت محاضرة طويلة استجمع فيها قصائد الحب الكاذبة فأذعن لرغبته وصمت..

ذات صباح وقفت طالبة لم تتعد السادسة عشر وفى كلمة الصباح قرأت كلمتها الساخرة التى قرأها بالأمس فقط فى جريدة قومية، كانت الكلمات ساخرة كعادة صاحبها تهللت أسارير شريف، كان تواقًا أن يسمع الأبناء يتحدثون بما يرغبون داخل المدرسة وليختلفوا فتركيبة المجتمع أصبحت جديدة فالأب والأم يعملان ولا وقت لديهم، أما الأبناء فالكتب المدرسية والدروس الخصوصية شاغلهم الأكبر لكن أين أفكارهم؟ أين أمانيهم؟

لم تكمل الفتاة مقالها، أسرع مدير المدرسة وسحب من يدها الميكروفون ودفعها للخلف بقوة.. هاتفًا «مصرنا فوق

الجميع.. عاشت مصرنا .. عاش السيد رئيس الجمهورية.. عاش السيد المحافظ عاش السيد الوزير.. عاش السيد مدير عام التربية والتعليم.. عاش الحزب الوطنى الديمقراطى فوق أنف الجميع ومن لا يحترم هذا الحزب يُسحق بالحذاء..».

خرجت كلمات المدير تحمل فى طياتها التهديد والوعيد وخاصة رائد هذا الفصل، أحس شريف برعشة فهو رائد هذا الفصل لكنه لم يطلب من الفتاة أن تتكلم بهذا .. خاف بعض الشىء وعاد السيد مدير المدرسة للحديث ثانية.

«إن هذا الحزب تمتد جذوره لمصطفى كامل ومحمد فريد .. على الطلاق بالتلاتة من سيخرج لسانه بكلمة تجرح تلك الرموز العظيمة سأشرده.. ومن يتحدث خيرًا فسوف نرفعه فوق أسنة الرماح» الجميع يختلس النظرات الساخرة سواء التلاميذ أو المدرسين لكنهم جميعًا صفقوا...

حاول شريف أن يتماسك رغم أوصاله المرتعشة، ألقى بتحية الصباح على التلاميذ والتلميذات، خاصمته ابتسامته المعتادة، كتب عنوان الدرس والتاريخ، جلس على مقعده وفتح دفتر تحضيره للدروس وأخذ يقلب الصفحات،

تهامس الجميع، رفع رأسه فالتزموا الصمت، حاول أن تخرج كلماته، نظر من جديد فى دفتره، عاد من تأملاته السريعة، وقف وأعطى وجهه للسبورة، وقع أصبع الطباشير من يده، تخلل جسده خدر غريب «يجب أن أتحدث إليهم، يجب أن أتكلم يجب أن أخرج من صمتى، يجب أن أشير عليهم بالصواب، إنهم تربة خصبة، فلا يهم درس درسين كتاب كتابين» جلس على مقعده، واستأذنه أحدهم بالسؤال:

- هل أنت مريض يا أستاذ؟

- لا..

- هل نكمل درس الحصة السابقة؟

انتصب واقفًا ولم يدر بنفسه واستطرد.

- ملعون مدرس وملعونة مدرسة، ملعون دروس وملعونة حصة.. توقف، نظروا لبعضهم.. عاد.. ملعونة كلمة حق يراد بها باطل.. ملعون مدرس يبيع كلمات وعلمًا لا يفيد..

جلس، وضع رأسه بين يديه، على غير عادته أشعل سيجارة، أطلق سحب سيجارته، تجرأ أحدهم وسأله..

- هل ما حدث هذا الصباح أثارك؟

- مؤكد.. وقف آخر قائلاً..

- أستاذ..

- نعم يا ابنى..

- هل تخاف؟

- نعم يا ابنى.. كل إنسان تأتيه ساعة خوف..

- مم؟

- لا أدرى..

- هل تخاف من مدير المدرسة؟

ابتسم لقد أثارته كلمات الخوف، تخوف أن يراه الأبناء مهتزًا، كان عاشقًا لمهنة التدريس، انتصب واقفًا وأمسك أصبع الطباشير كتب فوق السبورة كلمات:

الفراعنة.. الفلاح الفصيح.. الإسلام.. الشورى ثم اعتدل تجاه التلاميذ قائلا:

- أيها الأبناء نحن أبناء حضارة تمتد لتسعة آلاف عام وقف أمامها وأمام آثارها الغزاة مبهورين، تطالعنا كل يوم كلمة الديمقراطية حكم الشعب نفسه بنفسه وحقوق الإنسان، قالوا نتاج الغرب وأفكاره ونتاج عقول خارقة،

يتحدث بعض الأفاقين فيقولون إننا شعب لا يتحرك إلا بالسياط لو استعرضنا تاريخنا.. يجب أن نتأكد أن السياط لا تخلق جنودًا وأبطالاً يحققون الانتصارات تباعًا.. انظروا فوق جدران الفراعنة وتعلموا كم انتصار حققوه وتاريخ الإسلام وصدره وكيف وصلنا إلى ألبانيا وحدود فرنسا وحتى فى العهود المتأخرة وصلنا حتى حدود إيطاليا، فألبانيا أغلبها مسلمون كذلك البوسنة الجمهوريات الإسلامية التى انفصلت عن الاتحاد السوفيتى سابقًا.. ووصلنا لحدود الصين.. وقف أحد التلاميذ المشهود لهم بالذكاء وبأدب جم:

- يا أستاذ.. لقد تورمت عقولنا من كثرة الخطب الصباحية. نرجوك أن نتحدث كما تطالبنا برأى ورأى آخر..

- تفضل يا بنى.. هل فى حديثى شىء غير مقنع؟

- نعم..

- ما هو يا بنى؟

- إن الأهرام هى أكبر دليل على استعباد الفرعون للبشر.

رجعه هدوئه واسترد بشاشة أجاب..

- يا بنى.. كتب الفلاح الفصيح معلقات تسع، كتبها للملك الفرعون مطالبًا بحقه فى حمير استولى أحد الأمراء عليها.. أكرمه فى سجنه وأطلق له العنان حتى يكمل كل كتاباته ولم يودع معتقلاً ولم تنهشه كلاب الحراسة، لم يقتله وإنما تركه يكتب ويعلم الفرعون كيف يكون حاكمًا صالحًا، كيف يكون نصيرًا للمظلوم وتشهد البرديات بذلك.. منذ سبعة آلاف عام، أن اختلفنا فليس السلاح فى وجه من نخالفه، منذ سبعة آلاف عام كان فكر الإنسان همجيًا تحكمه القوة والبقاء للأقوى لكن الفلاح الفصيح كتب لم يأبه من الملك الإله لأنه صاحب حق، أيهما أفضل؟ هل يحمل خنجرًا مسمومًا وفى ظلمة الليل يودعه أحشاء الأمير.. حمل قلمه، ما أعظمنا، إن معلقات ومكتوبات الفلاح الفصيح حقيقة مازالت تحملها البرديات.. الخوف ليس عيبًا، لكن الصمت هو العيب، لماذا لا يكون الهرم نتاج حب وإجلال للحكام؟ لماذا لا يكون فعلاً.. عملاً.. أيام رخاء استظهارًا لإمكاناتهم وعملهم.. استأذنه أحدهم، استجاب له..

- ماذا حدث للفلاح الفصيح؟ «وبسخرية».. هل نفخوه؟

- أفصح عن سؤالك علانية لا تخف..

- أقصد زميلتنا الطالبة.. ماذا سيحدث لها؟ هل تسجن؟

- من قال لك هذا؟ هذه كلمات جوفاء لا أساس لها من الصحة، هى لم تخطئ لم ترتكب جرمًا إنها تحدثت فى وضح النهار، أنها أقوى من الخبثاء الذين يصنعون عبارات الهوى والغرام فى مصر.. هم منافقون.. لتسألوها..

- لكن المدير هدد يا أستاذ..

- استجدى قريحته أن تسعفه بإجابة مغايرة للحقيقة التى يعلمها جيدًا..

- ربما خانه التوفيق.. ربما أخذه الخوف عليكم.. لذا وجب.. ضج التلاميذ بالضحك..

فيم الضحك؟

- خوفًا علينا!!.. يا أستاذ هل تذكر مقولته.. من لا يحترم الحزب.. من.. من يستحق الضرب بالحذاء.. أى ديمقراطية هذه؟ الضرب بالحذاء فى قاعة علم.. يا أستاذ تغضب منى إن قلت الحقيقة؟

- قل ما تشاء يا بنى.. هل تعودتم منى غير ذلك؟

- آسف يا أستاذ.. أنت لا تقول الحقيقية..

- ربما يا بنى.

- أنت تخاف أن تتحدث معنا بصراحة، كل الأساتذة بنفس الصورة، مع من نتحدث وأين؟ من نصدق؟ هل نصدق المدير؟ أم نصدقك وندفع الثمن؟ أن نصدق أنفسنا.. إن ما نراه حقيقة خوف.. ورعب..

التلميذ يتحدث بلباقة وصراحة مطلقة، هو معلق بوظيفته، خوف يتملكه مما قد يحدث، سيكون حصاد لسانه أشياء وأشياء ربما لا يستطيع أن يدركها، رذاذ ماء خفيف فوق جبهته، اهتزت أوصاله، انطلق قائلاً..

- أيها الأبناء كثيرون منا منافقون قد أكون أولهم وقد يكون المدير آخرهم لكن انظروا جيدًا حولكم ليس بيده شىء لأى منا.. أنا.. أنتم.. جميعنا أحرار جميعنا مواطنون مصريون، نخاف على بلدنا ونحميها، كثيرون يتطلعون للسلطة، إن كانت السلطة تسلط سقط النظام وسقطت الدولة، هناك قضاء يحق الحق، هو ومن معه لا يستطيع ضرب أى منكم بالحذاء.. رفع خروتشوف يومًا الحذاء

ملوحًا فى الأمم المتحدة، كان يرأس ثانى أكبر دولة فى العالم، انتهى وانتهت دولته، انشطرت وكادت تستجدى الطعام ومن يعلم ماذا يكون غدها؟ من قال إنه يضرب بالحذاء، كاذب ومنافق وكلماته رياء ربما، لكن اقرءوا تثقفوا جيدًا.. ناقشوا جيدًا فى وضح النهار، لا تخافوا..

ستجدون كثيرين صادقين، بلا مغالاة.. ها هى صحف تنشر كل يوم أحاديث ضد الحكومة، ضد أى وزير.. ها هو صاحب جاه وسلطة أمام القضاء يمثل فى قفص الاتهام مثل سائر البشر ها هو كبير تتناوله رسوم الكاريكاتير بالسخرية، بطل هذا الزمان الحقيقى من يستغل الطرق المشروعة، لا تخافوا، تحدثوا، ناقشوا، من هذه الساعة سنعد مشروعًا لصحيفة ومجلة حائط..

- مجلة حائط.. صحيفة!!. يا أستاذ كلمات معادة، أحاديث كاذبة، فمثلاً شخصية العدد.. الأستاذ المدير العام.. مواليد.. برج.. أبناؤه.. كيف تسلق؟ أو مسئول كبير من إياهم.. هل يستطيع أى منهم أن يحدثنا بصراحة؟

سننهى هذا الموضوع الآن.. ولنا لقاء.. قبل أن ينتهى من كلمته، انفرج الباب، طالعه وجه مدير المدرسة، مبتسمًا

ابتسامة صفراء، صفق بيديه قائلاً.. «أحسنت أيها الثائر..».

- اسمك..

- .... دونه أمامه..

- بطاقتك الشخصية..

أخرج بطاقته، دعاه للجلوس، أكثر من ساعتين جالساً، تململ، حاول أن يفكر فى شىء لم تسعفه قريحته، انساق فى أفكاره، تقدم جندى ذكر اسمه، اقتاده، دعاه للجلوس بطاقته الشخصية أمامه، رفعها، ذكر اسمه، مؤهله، موطنه، مواليد/ حالته الاجتماعية.. نظر مسئول الأمن إليه بِتمعن وقال له..

- أنت متهم بإثارة الفتنة؟ صمت بماذا يجيب؟ وماذا يقول؟ عاد من جديد بسؤال لماذا لا تجيب؟

- آسف يا سيدى، أقصد يا باشا، أنا مجرد مدرس، مدرس عادى حياتى فى شيئين لا ثالث لهما إنسان وقارئ..

- ماذا تقرأ..

- كل شىء..

ـ ما معنى كل شىء...؟

ـ مختلف العلوم والمعارف والثقافات....

ـ التقارير التى أمامى تؤكد أنك تساعد على إثارة البلبلة وتساعد التلاميذ على التجمهر والثورة.. ابتسم.. نهره بشدة.

ـ يا سعادة الباشا أنا أضحك لأن تقريرك أعرف مصدره وهو تقرير يفقد المصداقية والحقيقة..

ـ دفاعك..

ـ لم أدافع عن نفسى ولكن لى رجاء، أتمنى أن يكون رجالكم وهذا رجاء.. ليست من تلك التى تتطلع.. أقصد المتسلقة ذوى الأهواء الشخصية.. فكلنا عيون لبلدنا والمفروض كونى مدرسًا أستطيع مجابهة أبنائى، أترك لهم الفرصة فى الحديث، ليس أن أحجر على أفكارهم أستطيع أن أغير الكثير إن ترك لى المجال لأسبر أغوار نفوسهم.. صفق المحقق بيديه وصاح بلهجة ساخرة..

ـ يا سيدى.. يا سيدى.. طبيب روحانى.. ها... ها.. ثم تبدلت ملامحه واستطرد.. استمع لحديثك فى الفصل..

أخرج جهاز تسجيل صغير أداره، استمع، أخذته المفاجأة، لم يصدق أنه صوته..

- أليس هذا صوتك؟ وحديثك؟

- نعم يا سيدى.. أنا لا أنكر.. هذا الحديث ينقصه الكثير.. هذا الحديث مقتطفات من حديث طويل.. هذا مونتاج لحديث.. ليس بالضبط.. كاد ينفجر..

- اصمت لتعلم جيدًا أن عيوننا تستطيع أن تخترق جدران حجرات النوم.

- أسلم بذلك.. لكن أقسم لك أن هذا الحديث ينقصه الكثير والأهم.. انفجر فيه..

- اسمع أنا أحذرك، وهذه آخر مرة، لك حجرة تدخلها، تدرس هذا ليس خاصًا بنا.. أحذرك من الخوض فى أحاديث سياسية أو كلمات تهدد أمن الوطن فأمثالك وباء لابد من التخلص منهم..

- آخر مرة.. لك ما تريد يا سيدى.. هل هناك شىء آخر..؟

- نعم الكثير من الشكاوى وصلت إدارة المدرسة ومديرية

التربية والتعليم وكلها تتحدث عن سوء سلوكك وأخلاقك خاصة مع فتيات المدرسة.. وبصوت منكسر أجابه..

- ربما حقيقية يا سيدى.. ربما صاغوها بعناية فائقة الله أعلم..

- أنت مسنود من أحد..

- يا سيدى أنا مواطن مصرى..

- لتخرج من هنا ولا أود أن أرى وجهك ثانية..

- لى كلمة.. هل تسمح سيادتك؟

- ماذا؟ بسرعة..

- أكون كاذبًا لو ادعيت أننى أكثر وطنية منك، أكون كاذبًا ومنافقًا إن ادعيت بأننى لن أتحدث مع الطلبة والطالبات فى أى شىء.. لكننى أؤكد لك يا سيدى أن حديثى سيكون بعيدًا.. قاطعه..

- لا تكمل.. أنا حذرتك.. بالسلامة..

انطلق من فوره، لم يحس بالهزيمة، أحس أنه على حق، ما دور الطلاب؟ من الذى قام بالتسجيل له؟.

لم يمض أسبوع واحد، فى نهاية العام الدراسى، رغم أنه

الوحيد المتخصص فى المدرسة والطلاب فى حاجة إليه، تم إصدار الأمر من قبل سيادة المدير العام بنقل المدرس المذكور لصالح العمل..

رقص قلب مدير المدرسة طربًا.. كان كارهًا له ولثقافته..

أخرج لسانه، كلماته فاقته طولاً، انتصار كبير حققه أمسك ميكرفون الإذاعة.. عاشت مصر.. عاش أحرارها... أبطالها.. تستطيع طلقة واحدة من بطل أن تسكت عواء الكلاب الضالة...

من فوق هذا المنبر أقولها ثانية، افهموا الدرس جيدًا ستمضى قافلتنا، كل من تسول له نفسه..».

اهتزت جدران المدرسة من كلماته التى تقطر حبًا فى مصر..

كان المديح للسادة والرؤساء، صفقوا من جديد، ابتسموا فى سخرية منه، حمل هو أوراقه، صاغ ابتسامة، كثيرون تخوفوا منه، تخوفوا من إظهار مجرد الاحترام له لزموا الصمت، منهم من رقص فؤاده طربًا وشدوا على يد المدير، تجمع أغلب التلاميذ حوله، حبس دموعه، أحس بالحب..

أحس بالخوف..

«طلبت منا أن نتحدث فى وضح النهار، ويوم أن تحدثت أنت.. ماذا حدث لك؟.. هل نتحدث فى وضح النهار ثانية؟.

ابتسم، شدوا على يديه، عانقوه.. قال لهم..

«تحدثوا دائمًا وفى وضح النهار»..

كان زماراً

جلس فوق كرسيه وأشعل سيجارته وعيناه تتفحصان الجدران تستعرضان اللوحات، حاول أن يفرغ انفعالاته فى نفسه العميق أو الاستغراق فى النظر والتمعن، استقرت عيناه على صورة ضخمة ذات إطار ذهبى اللون، توجه إليها وأخذ يتأملها فى صمت حتى ترقرقت عيناه بالدموع، وأد دمعه، لم يستجب لما يعتمل داخله فى رغبة جامحة فى البكاء هل يعشقها؟ هل يكرهها؟ أعاد النظر من جديد وركز بعينيه فى عينيها حتى تلاشت كل الرؤى فرك عينيه وهز رأسه، تحركت أصابعه المرتعشة تلمس شعر رأسها فى حنو بالغ وتذوب عشقًا وهى تتحرك فوق وجهها وأناملها وذراعيها، ابتلع ريقه وتحول بنظره لصورة الفتى الصغير الذى أضحى صورة منها وفى تردد تمنى أن يذهب للفتى

ويوقظه من نومه ويداعبه، تخوف من مربيته ذات اللكنة الأجنبية فقد تستنكر فعلته، أحس أن قدميه لا تسعفانه فى الوقوف أو الحركة فآثر الجلوس فى مقعده، قطع الوقت بالعبث فى جهاز التحكم الخاص بالتليفزيون، تململ فى مجلسه وحاول أن يلملم أفكاره المبعثرة فلم يفلح شد انتباهه إعلان عن آخر أفلامها، تأملها وما لبث أن أسبل جفنيه وعادت الصور تغزو رأسه.. صورتها قديمًا وهو يوم كانت الأضواء تغمره والجميع يستجدى مجرد توقيعه أو الحديث إليه، وقفت أمامه وهو يستعرض الفتيات ليختار مع المخرج من تقف أمامه منهن فى المشهد الصغير، ارتدين الملابس شبه العارية ورقصن وتحركن وتحدثن وهو يفحص ويتأمل أجسادهن حتى وقع اختياره عليها دون سواها، لثمته ثم امتنعت ورقصت معه ثم ابتعدت ولم تستجب لدعواته المتتالية أو دعاباته الفجة، ألقت بذور هواها فى تربته العطشى للحب فسرعان ما أنبتت البراعم زهورًا وكانت الثمار فى الفيلم التالى فأسند لها دورًا يقترب من البطولة ففرحت كثيرًا ولم تسرف فى تلبية مطالبه الماجنة فمنحته بحذر وتريث استطاعت أن تستأثر بالإعجاب ومنه خاصة، نصبت شباكها بدقة متناهية فوق عينيه فلم ير

سواها، شغف بها ولم يبح بما يخالجه من مشاعر وتتابعت
اللقاءات ولم يستطع الصبر، كاشفها بمشاعره وأقسمت أن
مشاعرها أقوى وأعمق، أسرع بالزواج، يومه قالوا له
«أحسنت صنعًا أن تخطفها قبل أن تبهرها الأضواء» وكان
الطفل الوحيد ثمرة حبهما الذى تحدثت عنه وسائل
الإعلام وخاصة الفنية منها، فى البداية حاول أن يبعدها
عن طريق الفن ولم تجد محاولاته، بريق الكلمات والصور
فوق صفحات الجرائد والمجلات كان أقوى، انتفخت
أوداجها وداخلها غرور غريب وساعدها أكثر إغداقها على
السماسرة وبائعى الكلمات الزائفة، استسلم فلم يكن بوسعه
سوى التصفيق لها مع زمرة المعجبين، تملكتها نشوة البريق،
كلما أحست فى عينيه حزنًا تقربت إليه وأمام الجميع لقبته
بالمعلم والأستاذ تطفئ نيران تذمره اللحظى، فتح عينيه
وأغلق التليفزيون وتحرك متوجهًا إلى حجرة المكتب ولكنه
عاد وولى وجهه لحجرة الفتى، ازدادت رعشة أطرافه
فألقى بنفسه على المقعد ثانية، استجمع قواه وتحرك من
جديد، حاصرته الذكريات فى كل مكان، مجلة أسبوعية
فوق إحدى المناضد الصغيرة وصورتها على الغلاف، أنشبت
الغيرة أظافرها فى قلبه فالصورة أكثر جراءة وابتسامتها

أكثر فتنة، خرج للردهة الكبيرة عله يجد ملاذًا بين خضرة الزرع أخذ نفسًا عميقًا من هواء الليل المشبع بأبخرة النيل ولكنها لم تنعش فؤاده بل أنعشت ذاكرته، أسرع للداخل وفوق أقرب مقعد صادفه جلس، ألقى برأسه للخلف واستدعى الخادمة فأتته على الفور وأسرعت تلبى ما طلبه منها، لم يحفل بتحذير الأطباء وألقى فى جوفه بجرعات متتالية من الخمر وبدأ الهدوء يتسرب إلى نفسه رويدًا رويدًا، عادت أطرافه لسيرتها الطبيعية جاوزت الساعة الثانية صباحًا، صاغت نفسه عبارات يلقيها عليها بمجرد دخولها، ستفيض عليه بابتسامتها، ستفتح ذراعيها وتأخذ رأسه بين يديها سيرشف من رحيق شفتيها، ستداعبه ويداعبها... كم هو فى أمس الحاجة إليها... تمنى الكثير منها ذهب فى أمانيه المشروعة منها.

عادت ومازالت الأصباغ فوق وجهها، فتح ذراعيه وتجاهلته واكتفت بإلقاء تحية عابرة ثم استدركت فعلتها فمالت وقبلت وجنته، حاول أن يطوقها بذراعيه انسلخت من بين يديه لم تأخذه الدهشة فقد اعتاد ذلك منها، مضى خلفها متمنيًا ألا تخذله قدماه، تحققت أمنيته فثبتت قدماه وأخفى رعشة أنامله فى جيب لباسه المنزلى، انحسر الثوب

عن جسدها قليلاً، تركزت عيناه على ما ظهر من جسدها وكأنه يراه لأول مرة وذاب فى تأمله فلم يلحظ نظراتها النارية المشبعة بالقنوط والتذمر، تقابلت نظراتهما فرسمت ابتسامة باهتة وطالبته بالانصراف حتى تستكمل ارتداء ملابسها، تسمر فى مكانه ولكن لثوان معدودات وما لبث أن خرج وأغلق الباب خلفه ثم عاد وفتح الباب من جديد، حاول أن يتحدث إليها ولكنها أسرعت وأغلقت الباب ومن خلفه قدمت معاذيرها فهى اليوم متعبة، تعانده قدماه وتعذبه الأسئلة والكلمات التى لا تخرج من فيه فاهتزت شفتاه ولم تخرج الكلمات وكأن لسانه قد التصق بسقف حلقه فلم يجد مفراً من الانصراف.

عاتب نفسه ـ حقاً إنها فنانة تتربع اليوم فوق قلوب محبيها وعشاقها... هل تسيطر على الأفكار البالية والرجعية القديمة التى عفا عليها الزمن؟! إنها وردة جميلة فى حديقة الإنسانية الزاخرة فهل هى ملكى أنا فحسب؟! أنا فنان مبدع يجب أن أترفع عن تلك التفاهات.. هوت على رأسه كلمات قادمة من أعماق قلبه مستنكرة أفكاره الغريبة ـ اتركها وفك أسر نفسك من هواها...

أقبلت بلباسها المنزلى فأخرجته من سكونه الظاهرى المتفجر داخليًا، كاد يطير فرحًا ظنها عدلت عن عزوفها فرجع إليه كبرياؤه المفقود ولكنه لم يدم فقد مدت يدها بشريط فيديو وتركته مطالبة إياه بأن يشاهده بدلاً من الجلوس وحيداً فهو أحدث أفلامها، دعاها للجلوس نظرت إليه ولم تتحدث، كاد يتوسل إليها لكنها لم تستجب وخيرته بين رؤية الفيلم أو النوم أو مزيد من الخمر، استسلم وعض ناجزيه ولم يجد سوى الإذعان ومشاهدة الفيلم، تتابعت المشاهد وكان مشهد الزفاف فالبطل يرفعها بين يديه وتذكر يوم زفافهما تخلصت من الفستان بمساعدة البطل وحياء يبدو على وجهها تمثله ببراعة بالغة، لعنها ثم تذكر أنه قام بأدوار تماثل دور البطل مع كثيرات، أحضر زجاجة الخمر وأخذ يرشف منها رشفات متتابعات ولكن حرارة المشاهد تفوق حرارة الخمر فى حلقه، استرخى وعاد يشاهد زوجته والبطل يرشف رحيق شفتيها بتلذذ بالغ وهى تغمض عينيها نشوانة وتتمنى المزيد والمزيد، لعنها ولعن نفسه ولعن كل الأفكار التى ترجمها على هواه الفنون جنون إن تشذ عن القاعدة فأنت مبدع - إن تخرج عن المألوف فأنت فنان - لم يدر من أين أتت الخادمة فى تلك اللحظة،

الخادمة أيضًا تغيرت فبمرور الوقت استبدلت لباسها الريفى بآخر فوق ركبتها مشدود حول جسدها، نظر إليها وابتسم - فنانة - ابتسمت بدورها، طالبها بالجلوس بجواره فجلست، رجع بالشريط للخلف ومنذ بداية حفل عرس زوجته على البطل وأخذ يضحك بشدة وهى تجاريه فى الضحك، مال عليها وعليه مالت، اتخذوا من أرض الحجرة مرتعًا خصبًا لانفعالاتهما معًا، ضحكت زوجته بشدة وهى تقف فوق رأسيهما، وقفت الخادمة أمام سيدتها فى هدوء بالغ أما هو فقد تصبب عرقًا، ضحكت زوجته من جديد وقالت «إن الوضع أفضل فى إحدى الغرف» أخذت الخادمة تعيد ترتيب ملابسها ومضت خلف سيدتها وهى تقول «تصبح على خير يا سيدى».

اللؤلؤ فى جوف المحار

الصمت مطبق على الجميع، رائحة التبغ تملأ المكان، عامود الضوء الساقط من ماكينة العرض السينمائى مشحون بالدخان المتحرك، العيون تتابع المشاهد.

الفتاة تستجير، الجنود لا يرضخون لتوسلاتها، اغتصبوا إنسانيتها.. عذريتها، تبادلوها، ركلوها بالأقدام، تتحرك فوق الأرض بصعوبة بالغة، ضحكات كفحيح أفاعى... طلقات الانتصار.. صرخات الزهو، تنحدر دموع المشاهدين يبتلعون آهاتهم، همسات مشحونة بالسخط، مفردات الألفاظ تستجير بالله، جلس أحمد بين الجالسين فى القاعة، توقفت آلة العرض.

تائهون.. لا يصدقون، وصل بهم لمرحلة التذمر من حياتهم.. كثير منهم لا يؤدون الصلاة، لا يدركون حقيقة

الشريعة وصوابها، تناثرت كلماتهم فى مختلف الاتجاهات مندفعة كطلقات مدفع رشاش، تمنوا الموت والذهاب إلى هناك حيث مجازر المسلمين وتلك المقابر الجماعية أملاً فى الشهادة، أحمد مشدوهًا لا يدرك ما يقوله، لم تذهب الصور من عقله، شعر بكلمات كثيرة تدور داخله لا تخرج لحيز الوجود، أصابت أطرافه رعشة غريبة، حاول أن يصرخ، حجر ثقيل فوق صدره، عرق غزير فوق جبهته، إحساس غريب ينتابه، وقفوا صرخوا.. نددوا... لعنوا... داخله يموج بثورة غاضبة عارمة...

خاطبهم الزعيم قائلاً «ها هى الحقيقة أمام عيونكم.. إخوانكم فى الدين يقتلهم الصليبيون.. يزرعون أجنة الحيوانات فى أرحام الفتيات.. يدفنونهن أحياء فى مقابر جماعية... يبيعون أعضاء أجسادهم كقطع غيار آدمية.. حتى الأطفال.. والشيوخ والنساء لم يسلموا من أيديهم.

تجاوز حديثه نصف الساعة، حظى باهتمامهم.. بادره أحد الجلوس «ما يدرينا أن هذا الفيلم حقيقة؟ وأن القتلة مسيحيون.. قاطعوه بشدة، اتهموه بالخيانة والعمالة، حاول أن يعود المتحدث لحديثه السالف، صرخوا فيه، طالبوه

بالخروج، أخرجوه. الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، يدخل أحمد الحارة، مازالت جلسات المساء كالمعتاد، أمام محل رمضان «أبو صيام» الذى يبيع الغلال ومجموعته التى تضم أحمد صابر وكامل بشرى وأبو ياسر.. بالإضافة إلى رمضان، رابعهم وكثيرًا ما يكون هو خامسهم ساهرين متسامرين حتى ساعات الفجر الأولى، ليست هى الصحبة الوصية فأكثر من حلقة سمر تختلف فيما بينها. خميس الحرامى وصحبته من شباب لم يتجاوزوا العشرين يتبارون فى الحديث بصوت مرتفع، معتادون على الصياح وكثيرًا ما تنشب بينهم المعارك، وقد تتجاوز حد المشاغبات اللفظية، يلعبون القمار ولكن بعيدًا عن عيون الحى، يتعاطون حبوبًا مخدرة وأحيانًا لا يجدون فيلجئون لشراب السعال المخدر، كثيرًا ما يتوهمون بأن أفعالهم دليل رجولة فيأتونها ورغم كل هذا يخافون الكبار، فالحاج فتحى لا يصمت شاهدهم وعصاته تفرقهم.

البيوت متقاربة، الظروف متشابهة، الأحزان والأفراح واحدة، الكثير منهم يذهبون للصلاة يوم الجمعة والآخرون يوم الأحد وفى مولد العذراء يذهبون جميعًا لدير العذراء شرق النيل وفى مولد سيدى الفولى أيضًا يجتمعون، فى

مباريات الكرة ينقسمون، النساء والفتيات ما بين الشرفات وأبواب منازلهن يتسامرن وينصتن ويذبن عشقًا فى القيل والقال، الأطفال فتيات وفتية بألعابهم الشعبية، لم يتغير شىء، ضحكاتهم تجلجل، نوادرهم تقص على الملأ.

يلقى بالسلام.. يطالبه رمضان بالجلوس، يتعلل بصداع ألم برأسه.

تفتح المدارس أبوابها بعد أسبوعين، فى منزلهم وفى الدور الأرضى تقطن «أم صموئيل» عمرها يناهز الستين عامًا، الصالة الواسعة مملوءة بلفائف الأقمشة المعدة لتصنيع ملابس الأطفال المدرسية خاصة غير القادرين، كل عامَ وقبل بداية العام الدراسى كانت تشترى الملابس وتصنعها وكذلك الكشاكيل والكراسات وتوزعها على أبناء الحى الفقير، شاركها الحاج فتحى بما يدفعه من جيبه الخاص وبما يجمعه من القادرين، أبو أحمد وصموئيل تربيا معًا، كثيرًا ما يجد أبو أحمد متعة كبيرة وهو يقص على ابنه ذكريات طفولتهما وشبابهما، سافر صموئيل لأمريكا وحصل على شهادة الدكتوراه فى الفيزياء وتزوج وأقام هناك، مازالت رسائله تصل لأبى أحمد، كل عام يأتى

للزيارة، حاول جاهدًا أن يأخذ أمه معه لأمريكا رفضت بشدة، كل أمنياتها أن تموت هنا وتدفن هنا بجوار سابقيها تعشق الحارة ومن فيها وهم يبادلونها المشاعر، الساعة تقترب من الواحدة صباحًا مازالت أم صموئيل فى عملها الدءوب تساعدها نورًا ابنة الحاج فتحى محبوبته التى يتمنى أن تكون له زوجة المستقبل، وكذلك عديلة أرملة محمود الجندى بياع العسلية، الباب مفتوح على مصراعيه على غير عادته صعد الدرج، لم يلق بتحيته المعتادة لم يمازح أم صموئيل حتى لا تكيل له الأسئلة وأين كان؟ ولماذا هو متأخر؟ وتتهمه باللامبالاة وتطالبه بالسعى للعمل....

نورا تستشعر قدومه، تنتظر حضوره فى المساء، يختلسان وقتًا يبثان لحظته خفقات قلبيهما استغربت أسرعت خلفه ولكن بتريث ابتسمت أم صموئيل واختلست نظرة فحسب وعادت لعملها لم تفهم نورًا من حديثه شيئًا تفكيره مشوش وكلماته لاهثة متقطعة وعباراته حزينة ونظراته حائرة لم ينظر لعينيها، لم يداعب أناملها تركها ومضى.

ثلاث سنوات لم يكل، رغم حصوله على مؤهل جامعى لا

يجد وظيفة، يعشق نورًا وها قد أصبحت أمام عينيه عروسًا جميلة، ولكنه يخاف أن يتحدث لأبيه أو أمه.. من أين المهر..؟ وأين الشقة..؟ ماذا يفعل..؟ كل صباح تدفع أمه فى يده ما استطاعت أن تدخره من مصروف البيت، مازال مثل تلاميذ المدارس، يقطع وقته فى القراءة أو المضى فى الطرقات بلا هدف فى المساء يجالسهم يتبادلون أحاديثهم المعتادة، يطلق أحدهم أحد النكات البذيئة الجريئة فينفرجون فى الضحك، يضحك معهم وداخله يموج بانفعالات متباينة.

الليلة أول مرة يلتقى بهذا الجمع، ويرى الزعيم ويشاهد تلك المجازر التى تم عرضها، خوف يتملكه، رعب من غد، يدرك جيدًا ما تعنى كلمات الزعيم، تتزاحم المشاهد فى مخيلته ما بين حقد وتذمر وفى مجلسهم المعتاد يضحكون ويتسامرون فى الحارة.

يحاول النوم، يتقلب فى فراشه، يخرج للشرفة المطلة على الحارة، يختلس نظراته لشقة نورا، يعود لمحاولته، يلقى بجسده فوق الفراش.

لم يذهب فى الموعد المحدد لمحاضرة الزعيم، ذهب

لمسجد الصحابة لصلاة العشاء، الشيخ حازم بصوته الهادئ الجميل، يرتل آيات بينات من القرآن الكريم فى خشوع، تخترق الكلمات النورانية جسده، تهتز، يسبح فؤاده فى هالات النور المغدق، تنزوى سحابات اليأس والقنوط، ينتهى الجميع من الصلاة، يواصل الشيخ حازم محاضرته، ابتسامة الشيخ جواز مرور لقلوب مستمعيه، يهاجم الشعوذة ومتصنعى التصوف، يحذر من الصمت أمام الكلمات التى تتقنع وراء الدين، يجابه المترددين فى الطواف حول المقابر، يسأله أحد المستمعين عن مذابح المسلمين.. يتحدث بصوت العقل عن البلاء ويطالب بالصبر والصلاة وإصلاح النفس أولاً.. يطالب أحدهم بالانتقام يبتسم الشيخ ويردد ﴿من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا﴾ (المائدة: ٣٢) صدق الله العظيم.. يعود ويطالب بالقصاص.. يبتسم ويرد الشيخ «من آذى ذميًا فقد آذانى» صدق رسول الله.. تعود الأسئلة وابتسامة الشيخ تجابهها، يستعرض الشيخ بثقافته تاريخ مصر فيتحدث عن الفراعنة والتوحيد، يغوص فى أعماق آلاف السنين، يستند فى حديثه لمخطوطات من كتاب الموتى، فى قفزات متتابعة وبلغة بسيطة يفهمها الجميع يواصل القص فى مختلف

المعارف، ويضع الكتب السماوية نصب عينيه.. فكلها دعوة للحب والخير والسلام، تتآلف النفوس مع كلماته السلسة، فيعود أحدهم ويواصل السؤال.. أنهم غربيون.. مسيحيون.. يذبحون.. ويقتلون.. يعاود الشيخ الحديث ويدعوهم جميعًا أن يسألوا أى قسيس أو حاخام أن كانت الأديان تدعو للقتل، إن الحضارة الإنسانية تحفر قبرها بأيديها إن كانت شريعتها هى شريعة الغاب ينصت أحمد باهتمام بالغ، يبتسم الشيخ ويتابع ويستشهد بالكثير، الاختلاف طبيعة الحياة الصراع منذ فطرة الخليقة، تصارع الأخوة ثم تصالح الأبناء ثم اختلفوا.. الديانات اختلفت للحكمة.. تصارع أصحاب الدين الواحد.. فأصبحوا مذاهب.. شيعًا.

فى حلبة مصارعة الثيران، يندفع الثور الهائج نحو اللون الأحمر، الموسيقى الإسبانية تتناوب، يتسابق المصارعون فى غرس سهامهم وسيوفهم فى جسد الثور الضخم تزأر الجماهير يتكرر المشهد حلقة تعذيب للثور، يدفع المشاهدون النقود أملاً فى المشاهدة، يسقط الثور فى ساحة المعركة، تهتف الجماهير تحية للبطل الميتادور، يحس بألم الثور تعالجه كلمات الشيخ بأن شروط الذبح فى

الإسلام الرحمة والسكين حادة شرط أساسى حتى لا يتعذب الحيوان، يتأمل المشاهد التى بثها جهاز التليفزيون يتذكر الزعيم ودعوته الثائرة يتحرر من قيود الشيخ ويذهب بفؤاده.

تسنح الفرصة فيتقرب للزعيم، يسمع باهتمام لكل ظروفه، يفسح له الزعيم مكانًا بجواره يحدثه أحمد بأمانيه فى غد يتزوج، ولكن ظروف حياته، يضحك الزعيم بقوة وينفث دخان سيجارته بعنف ويجيب شقة «أم صموئيل» تسقط على رأسه الكلمة فتدمى عقله تعقد المفاجأة لسانه، ينسحب من جواره وهو يقهقه ضاحكًا.

من أولى بالحياة أنا أم هى؟ أليست مسيحية ابنها هناك ينعم فى جنات أمريكا التى تفتح ذراعيها لهم، وتحارب المسلمين وتساعد إسرائيل وتقتل الفلسطينيين وتحاصر العراق وتدك بيروت لكن كيف الطريق؟ الزعيم دليله، يذهب النوم من عينيه، يسهر الليل يتفنن فى الطرق التى بها يستطيع التخلص من العجوز، باب شقتها مفتوح طوال الليل، حتى القطط الضالة تخربش بأظافرها وقت الفجر تفتح بابها تطعمها كعادتها، من يطرق بابها فتفتحه ولا

تسأل من القادم، طرق متعددة تلم برأسه هو لم يقتل يومًا فأرًا فكيف يقتل النفس البشرية!!! عادت كلمات الزعيم تقوى عزيمته وتلهب حماسه يومها يتزوج نورًا فأهم شىء اليوم الشقة ربما يهبه الزعيم بعض المال للمساعدة، لم يخب ظنه فتح الزعيم أمامه الباب ولكن بعد أن ينهى مهمته، هالة سوداء ظهرت تحت عينيه دفع الزعيم له ببعض المال مؤقتًا ليسافر بعيدًا بعض الشىء يستجم ويفكر ويتدبر أموره.

مع دخوله للحارة شىء غريب عيون حزينة، أطفال لا يتمازحون كبار لا يتسامرون صمت مطبق، صرخات تتردد قشعريرة أصابت جسده، خرس أصاب لسانه لم يستطع السؤال الجميع مهمومون.. محزونون.. دموع تملأ العيون، نساء متشحات بالسواد يملأن الحارة وأمام منزلهم بالذات، هل أصاب أحد من ذويه سوء؟ تحامل حتى وصل إلى باب المنزل، تعاقبت الصرخات من جديد (آيات) أخته الصغيرة تخرج من بين الحشود تجرى ناحيته صارخة، يقع قلبه بين قدميه تصرخ الفتاة قائلة «جدتى أم صموئيل ماتت» تسقط الحقيبة من يده يصرخ يهرول ناحية البيت يحشر نفسه وسط النساء يدفعهن ودموعهن تشاركه اللحظة، يتوقف

أمام جسدها المسجى فوق المخدع، يقترب فى صمت وخشوع يفسحون له الطريق تسقط دموعه، يركع أمام جسدها يلثم يدها، تغسل أناملها دموعه تبتسم أو كما هيئ له يميل يطبع على خدها قبله. حملوا نعشها فوق أكتافهم، الحاج فتحى عيناه حبلى بالدموع تسقط، يمسحها، فى الكنيسة التراتيل تردد لا يفهم منها شيئًا، الجميع صامتون ما عدا القساوسة والمرددون خلفهم، ينخرط الجميع فى حزن بالغ، بين الجموع يرى الشيخ حازم وفى نهاية الممر يقف الزعيم.

ثلاثة أيام متتالية، حالة من الذهول تنتابه كلما نام فى المساء حلم مزعج يقفز فوق رأسه يصيح صارخًا.. لن أقول آمين.. لن أقول آمين.

الحفلة

طرأت على رأسه الفكرة، دورها ثانية، أعجبته، صمم على تنفيذها، جلس فى هدأة الليل وبعد انتصافه، أمسك القلم ووضع نظارته على عينيه، أمامه كوب من الشاى تتصاعد أبخرته وهو ساهم، الأسماء كثيرة، الأبطال منهم من بقى على قيد الحياة ومنهم من استشهد فى الخامس من يونيو وحتى العبور العظيم، كلما اسعفته ذاكرته، خط اسم البطل..

«عبد الجواد»

دمث الخلق، خفيف الظل، أصبح معلمًا، دعاهم جميعًا يوم نجاحه، ذبح أبوه خروفًا نذره لذلك اليوم، أكلوا بنهم بالغ، تخاطفوا قطع اللحم، ألقوا الملاعق جانبًا، رفعوا أطباق المرق اللذيذ وشربوا، احتلوا يومها «المندرة»، وسط

صياحهم وضجيجهم دخلت عليهم أم عبد الجواد بثوبها الريفى الأسود الطويل، ووجهها يقطر فرحًا، زغردت فاهتزت الحجرة، طالبوها بالمزيد فزغردت ثانية، بلا حياء أفصحوا عن مطلبهم الحقيقى مزيد من اللحم والطعام، أسرعت تلبى مطلبهم، يومها صمموا أن يغنى لهم عبد الجواد وبعد عزوف استسلم وغنى «سمراء يا حلم الطفولة»، فى صوت بعيد عن الطرب قريبًا من الهيام والعشق فمحبوبته كانت تدعى سمراء..

بعد الخامس من يونيو يلتحق بالجيش، يتقدم لخطبة سمراء وتقطر وجوه الجميع بالبشر والسعادة، وكانت ليلة بدورها لا تنسى.

فى حرب الاستنزاف، يهبط خبر استشهاده فوق أسماع الناس، فتندفع الجموع فى صمت لمركز الشرطة، تتساقط الدموع تروى ظمأ العشق للحياة فى كر امة ونبل، فى موكب مهيب يمضى موكب العرس الجنائزى.. بين البكاء.. الحب.. الصداقة.. الأهل، ينخرط الجميع كل فى خشوع، تنفرج الأرض ويودع الجميع بقايا البطل.

مسح الناظر دمعة كادت تخرج من عينيه.. ورشف باقى

كوب الشاى مرة واحدة..

«درويش»

«أحمد أبو الدراويش» يتمتع بموهبة غريبة، رغم أنه لم ينل قسطًا وافرًا من التعليم، فيسرد حكاياته التى كثيرًا ما يختلقها ويجيد صياغتها، أخوه الأكبر طيب القلب ضخم الجسم، أتى إليه «أحمد» فى إحدى إجازاته من الجيش، أخبره بأنه تعرف فى «التل الكبير» على أسرة طيبة وابنتهم تحمل مؤهلاً دراسيًا وأنه عزم على الاقتران بها، فرح أخوه الأكبر وأخواته ووهبه ما لديه ليشترى «الشبكة»، كانوا طيبين ولم ينتشر التليفزيون مثل هذه الأيام وبلا تردد أظهر لهم صورة ممثلة سينمائية وادعى أنها زوجته القادمة، أخذت أخته الصورة منه وبعد يومين ولسوء حظه أظهرتها لجارتها المتعلمة التى قالت لها عن الحقيقة وانتشر الخبر، لكنه لم يتوقف فى سرد حكايته فيومًا أتى إلى أخيه شاكيًا باكيًا وادعى أنه أطلق قذيفة مدفع أثناء التجارب الميدانية وشرخت ماسورة المدفع ومطلوب منه مائة جنيه وإلا سيتم سجنه ومحاكمته، تأثر الأخ الأكبر، فذهب ليبيع جاموسته، فأكد التاجر بعد أن عرف سبب البيع أن هذا كذب وأخوه

يضحك عليه عاد ثائرًا هائجًا، وهرب يومها أبو الدراويش بعد أن أخذ ملابسه وأسرع ومن خلفه أخوه الأكبر حتى ألقى بنفسه فى المصرف وسبح للجانب الآخر، لم يأت يومها للقرية لأربعة أشهر كاملة، لم يستطع أخوه الصبر وسأل حتى عرف مكانه وذهب إليه..

شارك فى الاستنزاف، وفى العبور كان فى طلائع المقدمة وأبلى بلاءً حسنًا ويعمل حاليًا بالجمعية الزراعية، مازال الجميع يحبون مداعباته ولكنهم لا يصدقون بطولاته التى يقصها رغم حقيقتها وصدقها..

ابتسم الناظر وهو يتذكر أبو الدراويش وعاد يقلب أوراقه..

«السيد»

ابن الشيخ حافظ القرآن، لم يحفظ القرآن كتب الشعر ودون النثر وتحدث بلباقة تبارى فى الندوات ونال التقدير، لكن عقله سابح فى دنيا عنهم جديدة، وإن تحدث عن آماله فعن غد يتزوج من ذات قوام ممشوق ووجه بلورى ولا بأس إن كانت من بلاد الفرنجة والثلج وعن السيارة التى يمتلكها والحياة فى بذخ وياحبذا إن كان المنزل عبارة عن «فيلا»

صغيرة بحديقة، فى سهرات الليل يداعبونه فيتحدث، ينصتون ويصمتون ينتهى من حديثه وتتلقفه الألسنة فى صخب وضحك..

همزات ولمزات ولكنها فى حب ومودة، تدور الأيام وينتهى سيد حلمى من كلية الإعلام.. يحصل على درجته العلمية ويلحق بركب الأبطال فى مسيرة الصمود والتحدى يحفر اسمه فى سجل الأبطال وينال نوط البطولة، بعد فترة يفاجئهم بسفره لبلاد الفرنجة ويتزوج ويعيش هناك..

«الأحمدى»

الجزار اسمًا، رغم عمله مع أبيه فى عمليات الذبح إلا أنه طيب القلب مشهود له برحابة الصدر وخدمة أقرانه، باش الوجه دائمًا، تلطخت ملابسه بدماء الذبائح، فى طفولتهم كانوا يشجعونه على سرقة الكبد أو جزء منه، كان يلبى مطلبهم وفى مزرعة قريبة من المدرسة الابتدائية يشوونه، ورغم الرماد العالق به يجدون متعة كبيرة فى مذاقه، تزوج وهو لم يكمل ثمانية عشر عامًا، كانت لحظات سعيدة يستدرجونه فيها ليقص عليهم مباهج ليلة الزفاف وخوف العروس فيغرق فى الوصف، أقلع عن القص مذ

أخبره عبد الجواد بحديث الرسول ﷺ بأن الرجل لا يقص عما يحدث بينه وبين أهل بيته، كان من جنود المظلات الأبطال الذين قاموا بعمليات عديدة خلف خطوط العدو، هو حاليًا عامل بالمدرسة عامل بالإعدادية ومازال يمارس مهنته الأساسية كجزار..

«خميس»

أكبرهم سنًا، شارك فى الخامس من يونيو، كانت وحدته العسكرية فى مزارع الزيتون فى وادى العريش، قبل المعركة بيومين وقريبًا من البحر كان الحفل الساهر الكبير الذى شارك فيه نخبة من نجوم الغناء والطرب والرقص فى حينه، وسهر القادة يرشفون ويسعدون ويتناوبون الضحكات، اكتفى الجنود بالمشاهدة من بعيد، بعدها ويوم النكسة المشئوم دمرت وحدته بالكامل، هرب فى وادى العريش، تاه فى أمواج رمال الصحراء التى لا تنتهى أيام لا يجد فيها الطعام والماء، حتى عثر عليه البدو وعالجوه ولكن لم يدم الحال، أسرته قوات الاحتلال واعتقل مساعدوه من البدو، عاد فى عملية لتبادل الأسرى ولكن بعلامة مميزة غير ظاهرة، قص عليهم، بكى أمامهم ولم يجد حرجًا،

آقسم أنه تمنى أكثر من مرة، أقسم بأنه لم يحارب ولم ير عدوًا أمامه، شديد السخط متبرمًا بالحياة كانت كل أمنياته أن يعود لميدان القتال حقيقة، لم يتزوج، حاولوا معه لكنه رفض كثيرًا، كانوا يداعبونه بقسوة حتى يخرج مما هو فيه، أطلق عليه درويش اسم «سيدة» يومها ضرب الدرويش بقسوة، فرقوا بينهما، لكن لم يتوقف الدرويش فدائمًا يسأله.. «هل مازلت رجلاً؟» تدور فى رءوسهم الوساوس ما بين النكسة والعبور، كانوا محبطين وأحاديثهم كلها مرارة ـ جلسة المساء كئيبة، يحاول درويش أن يخرجهم من صمتهم، يومًا سأل سيد خميس «متى ستتزوج؟» .

خرج سيد عن مألوف اعتادوه منه، فقام من مكانه وأخذ يرقص ويضحك والقى بنفسه فى الترعة بكامل ملابسه، خرج من الماء وعاد للضحك من جديد قائلاً.. «المفروض كل راجل فى البلد دى كلتها من أول السد لغاية البحر يقطع عضو التذكير.. ينسى أنه راجل..» وسأل أحدهم.. «يعنى مش هتتزوج «صرخ بأعلى صوته قائلاً.. «يا ابنى أن ما اخدناش التار.. نتجوز إزاى.. افهم يا بهيمة «كانت أيام سوداء، نتفرس الوجوه تجدها مشحونة بالقهر، تنتشر النكات البذيئة، يتضاحك الناس على أنفسهم، فى العبور

استشهد سيد خميس، حزن أهله كثيراً وحز فى نفوسهم أنه بلا ولد يحمل اسمه..

بعد عام كامل، هبطت على القرية سيدة جميلة غريبة، ملابسها ليست كأهلنا فى الجنوب، سافرة الوجه، جميلة التقاطيع، بيضاء البشرة، جاءت ومعها ثلاثة أطفال أكبرهم خمس سنوات وأصغرهم طفلة صغيرة رضيعة، كانت زوجة لسيد خميس من أبناء السويس الصامدين، أقيمت الأفراح، الابن البكر اليوم تخرج من كلية الطب، لم تتزوج وأقامت بين أهل القرية، صارت ركناً أساسياً فى أفراح القرية ومآتمها، زينت العروس وصنعت ملابس المدارس وأقامت مشغلاً صغيراً تعلم فيه فتيات القرية، رغم مرور كل هذه السنوات مازالت نضرة الوجه مشاركة فى أعمال الخير، وتعمل بتدريس السيدات والفتيات اللاتى لم يصبهن الدور فى التعليم..

ضحك الناظر وهو يتذكر درويش وبكى على عبد الجواد وسيد خميس وتمنى أن يرى السيد وشعر بميل للطعام مع ذكرى الأحمدى.

خرجت عليه زوجته، وجدته مازال جالساً، اقتربت

وقرأت الأسماء ثم ابتسمت، قص عليها عما ينوى فعله. سيقيم حفلة فى المدرسة يوم الخامس من أكتوبر وسيدعو إليها الجميع، حفل لتكريم الأبطال، سيعيد ذكرى من استشهد، تعجبت بادئ الأمر ثم استنكرت ما عزم عليه، أخذت تسوق الأسباب والمبررات، وهو يستمع إليها علها تذكر سببًا وجيهًا ولكن للأسف، مازالت تنهش قلبها الغيرة من «البحراوية» كما أطلقوا على زوجة سيد خميس، فقد كان الناظر ومنذ قدومها لا يتأخر عن طلب تطلبه بل كان يساعد أبناءها فى دروسهم الخصوصية، كانت زوجة الناظر تستقبلها مرغمة، ذهبت فى تساؤلاتها، هل اخترع الناظر هذه الحكاية ليتقرب منها؟ رغم كل السنين التى مرت مازال وجهها يحمل نضارة وحلاوة تفوق الكثيرات من أهل القرية، وأصغر بناتها عقد قرانها وولدها انتهيا من تعليمهما، الشكوك فى رأس زوجة الناظر جعلتها لا تتحدث بهدوء فاستاء زوجها من كلماتها. وفى ثورتها أخذت تعدد الأشياء التى يمكن فعلها خيرًا من تلك الحفلة، فمرة تطالبه بليلة لسيدى «الريدى» فهو من أولياء الله الصالحين، وذهبت تعدد مناقب كل شيخ تذكره هو وأتباعه ومعجزاتهم وقدراتهم، أحس بالضيق من كلماتها خاصة أنها قالت عن

الحفلة «بلاش قلة أدب ومسخرة» حاول أن يقص عليها ما حدث فى العبور وقبله، هى سمعت منه مرارًا وتكرارًا، صممت على رأيها وجابهت كل أحاديثه بعبوس وتذمر، لم يشأ أن يغضبها، لكنه قرر وسيفعل ما يراه الصواب، تركته وذهبت للنوم، تقلبت على فراشها وعادتها الوساوس وصورة «البحراوية»، حاولت أن تستعيذ ببعض آيات من القرآن الكريم لكن محاولاتها لم تنجح، ماذا تفعل؟ هل تذهب للعمدة وهو ابن عمها؟

ماذا تقول له؟ هل تحدثه عن تعلق زوجها بالبحراوية؟ ابن عمها معروف بسلاطة لسانه وزوجها مشهود له بالتشبث برأيه مهما كانت العواقب وكلاهما لا يجتمعان على رأى..

ترددت الحكاية وتناقلها الناس، لم يصدق العمدة ما يسمعه، وتشاء الصدف أن يقابل فى طريقه درويش فبادره بالسلام وهو ينعته بصفة بطل العبور ولكن على سبيل السخرية، تجرأ أبو درويش وتحدث بشموخ وأخبره بأن الناظر سيقيم حفلاً كبيرًا يحضره المحافظ وكبراء المحافظة كلها يكرمونه بصفته بطلاً من أبطال العبور

العظيم وحاصلاً على وسام وكان فى مقدمة صفوف المنتصرين، واصل درويش الحديث وأضاف عليه الكثير كما هو معتاد منه، العمدة يتأكد من صدق الخبر وما روته له ابنة عمه؟ مضى وهو يسأل نفسه «هل جن الرجل...؟ تكريم يحضره المحافظ والقيادات.. ماذا يبغى الناظر..؟ هل يطمع فى منصب العمدة؟ أخذ يلقى باللعنات فوق رأس الناظر ومن أنجبوه.. فى جلسة المساء المعتادة، استطاع العمدة أن يسلب حوارييه ومرتادى جلسته عقولهم، فتحدث عما يطمع الناظر فيه من وراء هذه الحفلة وهو التقرب للبحراوية أرملة سيد خميس.. أخذ يصفها بالمرأة اللعوب، كما وصفها بصفات أقبح وهم يعلمون بأنها بعيدة عن هذه الصفات، فكثيرون من رجال القرية تقدموا إليها ورفضتهم جميعًا لكنهم يتناولون طعامهم فوق مائدة العمدة، ترددوا فى بادئ الأمر لكن توهج نيران النرجيلة بينهم ورائحة التبغ الممزوج بالحشيش، أطلقت ألسنتهم فتسابقوا مؤيدين وخاضوا غير آسفين فى عرض البحراوية، وتناقلوها بدورهم وصدقوا ما رددوه فى جلسة لهوهم..

لم يتوقف العمدة عند تلك الشائعة فحسب، استطاع بلباقة وسهولة أن يصل فى نفس الليلة لمنزل الشيخ عبد

المولى عضو مجلس الشعب، فهمس فى أذنه بأن الناظر يعد العدة ويبغى مقعدًا فى البرلمان وتشجعه على ذلك زوجة سيد خميس وهى اليوم أصبح لها ثقل وتستطيع أن تؤثر فى الانتخابات المقبلة وهناك احتمال أيضًا أن ترشح نفسها وفى المحافظة يتمنون أن تتقدم أى سيدة والحفلة التى يزعمون عملها ما هى إلا حركة يبتغون وراءها إلقاء الضوء عليها، استطاع أن يسلب الشيخ فكره الهادئ الرزين، فثار وهدد وتوعد الناظر ومن يساعده وسيحاول أن ينقله من المدرسة عن طريق معارفه وأصدقائه ولو وصل الأمر أن يأتى بالموافقة من الوزير شخصيًا، ألقى العمدة بالكرة فى ملعب الشيخ.

ذهب للبحراوية على غير موعد، رحبت بمقدمه، سمعت بكل ما ينوى فعله سعدت كثيرًا، عرضت خدماتها، كعادتها، حديثها استقطبه وأشاع فى نفسه الزهو والسرور، تبرعت أن تقوم بصنع الحلوى اللازمة لهذا اليوم، وجد فى عينيها سعادة غريبة، أصبح حديث القرية كلها، تطوع أكثر من مدرس بالعمل ولكن هناك عيونًا ترقبه بحذر، فى اجتماع مجلس إدارة المدرسة فوجئ بأكثر من ثلثى الأعضاء معترضين على فكرته وتجرأ أحدهم ونعته بصفته

الاستهتار وسخر من الفكرة ولم يوافق على جمع تبرعات من الأهالى فى حدث لا يفيد، أغلبهم متحمسون لكنهم محجمون عن الخوض فى الحديث، عرف أن وراء تذمرهم العمدة والنائب..

تواردت الخواطر، تذكر لحظات العبور ويوم عودة الروح، تساءل.. ألا يستحقون؟ يجب أن يجلسوا فى مقدمة الصفوف.. لتنحنى الرءوس لهم إجلالاً واحترامًا .. تعاوده الذكرى، يوم اشتعلت النيران فوق سطح مياه القناة، يوم ارتفع علم مصر.

على الجانب الآخر، تذكر الخوف وما اجتاحه يومها، يومها كاد أن يفر من أرض المعركة؟ أشلاء زملائه التى تناثرت، الصواريخ التى تدك مواقعهم، الدماء التى روت الأرض، السماء التى حجبها الدخان، كان أكثرهم خوفًا، قوة غريبة اجتاحته، تمرد عما تجيش به نفسه فى تلك اللحظة، تقدم بخطى ثابتة للألم، بقلب ينبض بالحب والحياة ويبتغى الموت سبيلاً للغد..

كل أبواب المساعدة أغلقت فى وجهه، ظل طوال الليل ساهرًا، استعرض كافة الطرق التى بها يستطيع تنفيذ

فكرته التى آمن بها، هل يتراجع؟ الجميع يعلمون... ماذا سيقولون عنه؟ عاودته نشوة النصر وحب الحياة إنه الوحيد من بين أبناء القرية الذى استفاد كثيراً، لقد سافر للخارج أكثر من مرة، اشترى ثلاثة أفدنة، زوج ابنه وابنته ومازال يمتلك رصيداً فى البنك..

فى اليوم التالى ذهب للمدينة، استرد جزءاً من ماله، اتفق مع رسام أن يرسم صور كل الأبطال بحجم كبير فى خلال الأيام القادمة، وجدوه عازماً على التنفيذ، عادوا إليه يعرضون خدماتهم، اشترى مدرس التربية الفنية الألوان والأقمشة على نفقته الخاصة، تبرع الحاج منصور بالفراشة على حسابه، أصبحت المدرسة كخلية نحل، يتسابقون بكل شغف، تناثرت الشائعات أكثر، كل يوم تذهب البحراوية للمدرسة وتجلس حتى بعد الظهر، مدرسو التربية الرياضية والموسيقى تحمسوا أكثر، كما سنحت فرصة لأى منهم أسرع بالعمل، بعد أن ينتهى اليوم الدراسى يجتمع الناظر مع «المناضلين» كما أطلق عليهم الناظر، يواصلون العمل وكثيراً ما تناولوا الغذاء فى المدرسة، كل يوم تزداد المدرسة بهاءً وجمالاً، وصلت صور الأبطال وجملت بإطارات خشبية مذهبة، العمدة يحاول أن

يلقى الرعب فى صدر النائب، والنائب بدوره يحاول أن يعترض «البحراوية» تصده بعنف فقال على الملأ «إنها امرأة وجهها مكشوف واللى زيها يخوف» تأخذ الغالبية النشوى، وراحوا يواصلون العمل..

حدد الموعد بيوم الخامس من أكتوبر، وأرسلت الدعاوى للمحافظ والسكرتير العام وقيادات الحزب والتربية والتعليم..

لم ينم ليلتها الناظر ومجموعة المناضلين، سهروا حتى الصباح، ارتفعت الزينات والأعلام، فى الصباح، ذهبوا لمنازلهم لتغيير ملابسهم وعادوا لمزاولة مهامهم، أكثر من مكبر صوت فى مختلف الاتجاهات يرسل آيات الله البينات..

توافد التلاميذ فى موعدهم المعتاد، بلا كتب دراسية، وجوههم تقطر بالبشر والسعادة وملابسهم نظيفة جديدة «البحراوية» منذ الصباح تشاركهم، جاءت وخلفها بعض النسوة يحملن فوق رءوسهن صوانى الحلويات الشهية التى سهرت حتى الصباح فى تجهيزها، الجميع تواقون لهذا اليوم، الحركة غريبة فى القرية كلها، كان الناظر أكثر

سعادة، نشوى تدب فى أوصاله، مدرسة الموسيقى تجرى البروفات النهائية على الأغانى التى سيرددها التلاميذ، مدرسو التربية الرياضية يخططون أرضية الفناء الواسع يشاركهم العمال والتلاميذ بملابسهم الرياضية، يتحرك الناظر فى زهو وخيلاء كالقائد يستعرض جنوده، مشاعر جميلة صادقة فى يوم من أعظم أيام مصر، تنساب موسيقى وأغانى النصر فتحيى الذكريات، كلمات الأغانى مزهوة بالنصر، منتشية فتنتشى النفوس..

دخل درويش، لم يأت بجلبابه كما هو معتاد، دخل وهو يرتدى حلته الجديدة القديمة التى احتفظ بها قرابة ربع قرن، زينها بالأوسمة والنياشين التى كانت ملقاة فى المنزل، صفق التلاميذ وضحكوا وبادلهم التحية رافعًا يديه، توافد المكرمون تبعًا، حيوهم كأحسن ما تكون التحية، امتلأ السور الخارجى للمدرسة عن آخره بالأهالى غير المدعوين، أطفال.. شيوخ.. نساء، عرس جديد على القرية كلها، لم تر العين من قبل مثله.. اشرأبت الأعناق وتعلقت العيون بالموكب القادم من بعيد، الدراجات البخارية تطلق نفيرها وهى تسبق سيارة المحافظ والقادمين، غردت العصافير ربما غبطة أو خوفًا لكن تعانقت الأصوات جميعًا، التصفيق

والزغاريد والموسيقى كونت سيمفونية رائعة..

لم يتوقع أحد قدوم كل من العمدة ونائب البرلمان فقد أتيا وخلفهما من يحمل هداياهما للأبطال، أخذ الضيوف أماكنهم كما صنفها الناظر فكان نصيب أحمد درويش مقعدًا بين العمدة والسكرتير العام أما الأحمدى فكان مجلسه بين وكيل وزارة التربية والتعليم ونائب البرلمان وهكذا أخذ الجميع أماكنهم...

آيات بينات من القرآن الكريم، ثم تواردت الكلمات، وقدم الحفل أستاذ اللغة العربية صاحب الصوت الرخيم، غنى التلاميذ وقدموا استعراضات فى حدود إمكاناتهم، تفوق الجميع، طلب الناظر من كل بطل من الأبطال أن يقصّ جزءًا عايشه من ملحمة العبور، كان أول المتحدثين زوجة البطل الشهيد سيد خميس، لم تأبه للموقف ووسط التصفيق الحاد، ترقرقت عيناها بالدموع، خرجت كلماتها فى شموخ، تحدثت عن زوجها، تحدثت عن أبناء السويس الصامدين الذين لم يتركوا بيوتهم رغم الحصار ورغم القذائف المتتالية، الأطفال الذين لقوا مصرعهم والشيوخ الذين دفنتهم القذائف والنساء اللائى وقفن كالرجال،

ضمدن الجراح وساعدن الأبطال، قصت أكثر من حادثة وقعت لها ولزوجها ولأولادها، وأمنية زوجها أن تعود بأولاده لبلده وتربى أولاده بين أهله وذويه، هبطت دموعها وكذلك دموع مستمعيها، أنهت كلمتها وصفق الجميع بحرارة وقوة، وزغردت النساء من خارج المدرسة ومن وقفن بجوار السور، وغير مقدم الحفل الموضوع وقدم طفلاً صغيراً ليغنى أغنية وطنية قديمة، ذهبت الدموع من العيون وتأملت الأمل الصغير وأنصتت إليه بشغف وسرور، صفق له الجميع..

كان الدور على درويش، عاصفة من التصفيق والضحك، ومنهم من قال «أبو لمعة»، داعب الجميع بابتسامة، وألقى بكلمات الشكر للجميع وأخذ يقص عن بعض البطولات المذهلة التى قاموا بها وكان له دور فيها، حكى عن أسره لجندى من جنود الأعداء وكيف عاد به فى حرب الاستنزاف ضحك الكثير، وأقسم بالله العظيم أن ما يقوله هو الصدق، وقاطعه السكرتير العام للمحافظة ووقف فصمت الجميع وتوجه بالسؤال لأحمد مباشرة «هل تعرفنى؟» ترك درويش الميكروفون وأدى التحية العسكرية أمامه قائلاً «نعم يا أفندم»، أخذ السكرتير العام أحمد بالأحضان وتناول الميكرفون وقص على الملأ حقيقة

البطولات التى قام بها أحمد درويش بل وأكد وأقسم أن درويش أسر جنديًا إسرائيليًا فى حرب العبور وأنه كان قائد كتيبته وشاهد ذلك بنفسه..

هتف الأبناء لأبى درويش وصفق الحضور، خرج كل بطل عن صمته، واستمع التلاميذ فى حب لأبناء بلدهم، آبائهم وأعمامهم وأقربائهم، فى أثناء كلمة السيد المحافظ، تململ وكيل وزارة التربية والتعليم فى مجلسه، نظر إلى «أحمدى» الجالس بجواره مباشرة بقرف، لاحظ الناظر حركته، وما لبث وكيل الوزارة أن طلب من (أحمدى) كوبًا من الماء، هم أن يقوم من مجلسه، أسرع الناظر إليه وطالبه بالجلوس، ونادى أحمد العمال ليأتيه بالماء، لم يترك النائب الفرصة، فمال على أذن وكيل الوزارة وبكلمات مشحونة بالضيق والتذمر مما يحدث تبادلاً حديثًا..

فرحة الناظر لا تدانيها فرحة فى الوجود، أحس وكأن اليوم فقط يوم العبور يتأمل صور الأبطال وتكاد تسقط من عينيه الدموع، وزعت الهدايا ونال الجميع التقدير المناسب فى أعظم ذكرى، وزع الناظر الهدايا التى اشتراها من ماله الخاصة وكذلك النائب والعمدة، لم يكن المحافظ بالرجل

البخيل فأسرع وأمر بصرف جوائز لكل بطل بما يوازى الألف جنيه فى صورة شهادات استثمار..

لم يمض شهر واحد وكان التقرير الذى أعده وكيل الوزارة فى يد النائب والعمدة وكلها تعلن أن الناظر استغل المناسبة لاستظهار مكانته وعطل العمل بالمدرسة يومًا دراسيًا كاملاً، وبعدها بأيام استطاع النائب توقيعها من السيد الوزير.. والأمر بنقل الناظر المذكور..

وسام على قبر جندى مجهول

تاهت الطرق من عينيه، تحامل من جديد، لم يدرك أى الطرق يسلك مرتفعات جبلية عالية، مضى يومان ويزيد، مازال تائهًا ...، طرق جبلية وعرة، ثم أراض منبسطة على امتداد البصر، لم يصدق عينيه أول الأمر، ظن أنه السراب إذا فهو قريب من «بئر الحفن»، أعاد النظر من جديد مازال السد القديم موجودًا عاد الأمل إليه فبئر الماء قريب منه، كاد يرقص قلبه فرحًا سمع أزيز الطائرات تعود من جديد، انبطح على الأرض، لم يتحرك من مكمنه، انطلقت رصاصات من حوله لم يتحرك، أصابت قدمه اليسرى شظية، لم يتحرك.... تحامل، خاف أن تعود الطائرات من جديد، انبثقت الدماء من قدمه، شمس الظهيرة فى صحراء سيناء تهرب منها الحيوانات الضارية، ذهب فى

إغماءة لم يدركم من الوقت مضى عليه، لم يشعر بالطائرات التى مسحت المنطقة مرة أخرى.

قبيل الغروب، لسعات الذباب القاتلة أدمت الجرح الذى تركته الشظية، صحا متألمًا، تأكد من وجود بئر قريب، تأكد من أن حياة ما لإنسان أو حيوان، صوب عينيه من جديد تجاه السد القديم المنهار، سحب قديمه، زحف مرات. واستراح مرات، نفد الماء منه منذ الظهيرة، ليس معه ما يسد رمقه توقف فى سعيه، سحلية ضخمة ذات درع فوق ظهرها،... ما هذا؟

أحيوان من حيوانات ما قبل التاريخ؟، أو ديناصور، نظر إليه، رغم أن الدماء تثير حيوان «الذب» المنتشر فى هذه المناطق، فإنه مضى لم يحفل به، فجثثُ الجنود كانت ملقاة فى كل أرجاء الصحراء القاحلة، بعد طول عناء ومجهود وصل أخيرًا لمبتغاه رغم أن الليل قد حل والظلمة عمت المكان، تعودت عيناه الظلام، كانت النجوم ساطعة جلية... أدرك موقع البئر، كانت المفاجأة ذات وقع كبير على نفسه فالبئر أصبحت جافة، ألقى بقطع الحصى، لم يسمع للماء صوتًا، أدرك أنه ميت... لا محالة، عض على ناجزيه

وتحامل، ربط الساق الجريح بكل ما لديه من قوة خارت قواه، لم يستطع الحركة من مكانه أحس بأعضاء جسده بدأت فى التوقف أخذ يردد الشهادة.

لليوم الثالث على التوالى، اعتادوا على جثث القتلى فى طريقهم، بكوا أول الأمر أدركوا أن البكاء لن يجدى، صدرت أوامر شيخهم أن يلتزم كل منهم بطريقه...

طالبهم أن يظهروا الخضوع لقوات الاحتلال، طالبهم أن يخبئوا أسلحتهم فى تلال الرمال أو بين شقوق الجبال فى مرتفعات جبال «لبنى» أو جبال «الريسان» أو فى دروب الصحراء التى لا يعلم أحد الطريق إليها سواهم، أجسادهم نحيلة وجوههم سمراء، سواعدهم قوية، عيونهم كصقور الصحراء وكل منهم بدوره أصدر أمرًا لأفراد أسرته خاصة الفتيات اللاتى تخرجن من الصباح للرعى...؟ جاءتهم الأوامر فى صورة منشورات ألقتها الطائرات، المنشورات تهدد أى بدوى يساعد جنديًا بأن مصيره الإعدام وأسرته.

ساقت قطيع أغنامها أمامها، أطلقت الإبل، فكت أسر الكلاب، انطلقت لرعيها، أشلاء متناثرة، بكت بحرقة، ساقت القطيع للوادى المنبسط القريب من «بئر لحفن»

أخيرًا وصلت لمبتغاها، الطائرات تمضى وتجىء أضحت مألوفة لعينيها نجمتها السداسية تصيبها بالتأفف، سيارات يقودها جنود ومجندات يلقين إليها بالتحية «شالوم..» ترفع يدها لهم قسرا عنها، هى أسيرة لأوامر الشيخ الكبير.

مضت فى طريقها الطويل حتى وصلت للبئر القديم... أسندت رأسها لجدران المعسكر القديم أخذت تمضغ كسرات الخبز الجافة وتداعب حبيبات الرمل بعصاها الطويلة سمعت آهة مكتومة، ظنتها بادئ الأمر لشاه أو لبعير، سمعتها ثانية، تقدمت بحذر صوب البئر القديم، لفحت الشمس وجهه، آثار الدماء فوق ساقه وقد تيبست بعض أجزائها، الذباب يتكاثر من حولها نظرت كانت تصدر منها صرخة، صدرت منه آهة جديدة، أسرعت تلقى بغطاء رأسها فوق وجهها، عادت وتذكرت أنه يعانى سكرات الموت رفعت برقعها من على وجهها، اقتربت منه، نظرت إلى وجهه أسرعت تبلل قطعة من قماش حزامها البنفسجى بعد أن مزقت أجزاءه وتمر بها فوق وجهه جلست وأسندت رأسه فوق ساقها، أخذت تبلل شفتيه بالماء، اخترق أذنيها صوت الطائرات، ألقت برأسه بعيدًا، ابتعدت عنه، تتبعت عيناها مساره، عادت إليه، نظرت إليه، حركت بسرعة

أمسكت بالشاه، فى قعب صغير ملأته عن آخره باللبن، أسندت رأسه فوق ساقها، كان ظمأنا، رشف رشفات لاهثة أتى على الإناء بسرعة، كادت تضع رأسه فوق الأرض، مالت رأسه وحطت فوق صدرها المشحون بمشاعر الفتاة العذراء. أخذتها رعشة غريبة، حاولت أن تبعد رأسه تدحرجت وعادت من جديد وكأنها استعذبت ذلك المخدع الفياض بالمشاعر تدرك ما يعتل بصدرها، خافت.. تمنت أن تلقى برأسه بعيدًا، لم تستطع، احتضنت رأسه بقوة فى صدرها الناهد، أغمضت عينيها تاهت للحظة أخذت تداعب شعره المسترسل المشبع بحبيبات الرمل والعرق، أخذت تلقى بحبات الرمل بعيدًا، عادت يداها تتسلل بين شعيرات رأسه، دقات قلبها المتدافعة تصهل كأصوات فرس جامح يخوض معركة حرب ضارية، أزيز الطائرات أوقف دقات قلبها..

تزحزحت الرأس الغافية بفعل يديها، استقرت على الأرض، ماذا تفعل...؟ هل تذهب للشيخ...؟ هل تتحدث لأبيها....؟ هل تتكلم مع قريناتها قد يذهبون به، إنه جندى كان يدافع عنا، ماذا تفعل؟.

دقات قلبها عنيفة أصوات تدعوها أن تعود لتأخذ رأسه

فى صدرها، عادت إليه، أخذ يهذى بكلمات لم تدرك مما يعنيه شيئًا، ارتفعت درجة حرارته...

مزقت بنطلونه من موضع الجرح، أخذت تنظفه جيدًا أشعلت نيرانًا وحرقت رأس سكينها المدبب وأخذت تكوى مكان الجرح بين صرخاته أسرعت ووضعت بين أسنانه قطعة القماش، ذهب فى سبات عميق، استطاعت أن تدفعه وتدحرجه حتى حجبته عن العيون خلف سور المعسكر القديم... ابتعدت وعيناها لا تفارقان المكان، طافت حول المكان، دورات متتابعات خلف قطيعها، قبل أن يحل المساء ذهبت بإنائها الأكبر حجمًا المملوء باللبن وكسرات الخبز الجافة، عادت وسندت رأسه فوق صدرها أخذ يرشف اللبن بنهم، فتح عينيه، تقابلت عيونهما، أسرعت تغطى وجهها، أبعدته، أمدته يدها بكسرات الخبز الجافة تناولها أمسك يدها بقوة لثمها، أشعل النيران المتقدة داخل جسدها الفتى، أصدرت له أمر ألا يبارح هذا المكان...

لم يداعب النوم عينيها صورته لم تفارق خيالها، استمعت لأقاويل كثيرة وحكايات عن قوم من قومها أجاروا جنودًا وكان نصيبهم السجن أو الإعدام... خافت، تملكها

الذعر، توجست الشر، حاولت أن تتكلم لم يطاوعها قلبها.. إن اكتشف جنود الاحتلال مساعدتها لهذا الجندى.... ماذا يكون نصيبها ...؟ لم تفكر فى نفسها... ماذا يكون نصيب أهلها؟..........

تماثل للشفاء، أسبوع مضى، هالة سوداء أسفل عينيها، عيون ترقب طوال النهار وخوف يجوس قلبها طوال الليل، عزمت أن تمضى بعيداً، جلست بجواره لم ير وجهها، أخبرته أنها عزمت المضى بعيداً حاول أن يتحدث وضعت يدها فوق شفتيه، أمسك يدها لثمها بحب بالغ... خرجت كلمته عنه قسراً «أحبك» دفعته للخلف، نفضت يديها وجلبابها من الرمال بعصبية بالغة بصعوبة استطاع الوقوف على قدميه... همت أن تمضى، دعاها باسمها الذى ذكرته مرة واحدة «شيخة لا تتركينى» تقابلت عيناهما فى لحظة منسية من عمر الزمن طافت بذهنها خيالات كثيرة، أحجمت عما يتردد داخل قلبها، لم تفصح عما بداخلها.

من مشاعر حاولت أن تكبل دقات قلبها خافت أن يسمعها، ابتعدت، عاد أزيز الطائرات تجوب المنطقة، تمسحها، تمسح كل ركن فيها... ما العمل؟.. «البئر قديم

جف ماؤه ولا يرتاده أحد... عمقه يتجاوز العشرين مترا لأسفل «شحذت فكرها، عزمت على أمر ما، أسرعت وفكت حبلاً طويلاً من فوق بعيرها، قاع البئر نظيف إلا من بقايا وهياكل لحيوانات... علقت الحبل الطويل فى رقبة الجمل لف بدايته حول وسطه أخذ يهبط رويدًا رويدًا مع رجوع الجمل للخلف، أشعل ثقابًا، الظلمة حالكة، الطريق للقاع رطب وكأن ثعابين الدنيا كلها متجمعة تتنفس أسفله، تملكه الخوف عاد يشعل عيدان الثقاب، وصل للقاع، الأرض ندية شعرت بوصوله للقاع استحسن المكان ألقت إليه بفرش وبرى مما يجيدون صنعه استخدم إحداها كمفرش لأرضية البئر والثانية للغطاء، امتد حبلها بالماء وتموين من كسيرات الخبز الجافة، وأخيرًا ألقت بحبلها بالغطاء القديم... الخشبى والصاج تناوله بهدوء، فهم ما ترمى إليه ما إنتهت من عملها إلا وسيارات الجنود الإسرائيلية تغرق المكان على آخره، رفعت حبلها مسرعة ربطته إلى بعيرها، وعادت للقطيع الذى توقف بدوره ينتظر منها الإشارة... نبحت الكلاب بشدة، أطلق أحدهم رصاصتين أردت الكلب ميتًا وسط لعنات الفتاة لم يعيرها انتباها، أخذوا يجوبون أرجاء المكان نقبوا المعسكر القديم، لم يجدوا شيئًا فى مخبئه،

سمع طلقات الرصاص التى استقرت فى جسد الكلب،، تكور فى مخبئه شعاع يراه بعيداً... ألقى فوق رأسه بالغطاء الخشبى، أضاءوا كشافاتهم لم يروا شيئًا... ثلاثة أيام مضت، طوال اليوم الجنود يزرعون المكان، فى المساء تحلق الطائرات... وتلقى بالمظلات التى تتعلق بها الفوانيس المضيئة حتى تصل للأرض ثم تعقبها بمصابيح جديدة تظل الأرض الواسعة مضاءة طوال الليل..

لم تستطع الوصول إليه فى النهار ولا فى المساء... قلبها يخفق بشدة لا يجد النوم سبيلاً إليها، سمعت من أهلها أنهم يعزمون على إقامة معسكر فى هذه الأرجاء هل قبضوا عليه؟... هل مازال على قيد الحياة؟.. ماذا تفعل؟... بين حاجيات أخيها «عودة» الذى يتلقى تعليمه بالأزهر الشريف... وجدت هويته «بطاقته الشخصية» ملامح الصو رة باهتة، عزمت على أمر ما سمعت أهلها يتحدثون عن أبطال نجمة سيناء الذين يهربون الجنود قبل أن يقبض عليهم اليهود، عرفت الاسم الذى يقودهم...

مع تباشير الصباح، قبل إشراقة اليوم الجديد أسرعت وراء قطيعها، أسرع بعيرها وكأنه يعرف ما عزمت عليه،

قبل أن تفيض الشمس بأشعتها نادته لم يستجب.. قالت «أنا شيخه لا تخف سمعت صوته وكأنه قادم من جوف الجبل.. ألقت الحبل بسرعة ربطته فى بعيرها، ارتفع به أسرعت تحشره داخل خراج الحبوب، كان وجهها مكشوفًا وعيناها زائغتين وشفاهها مرتعشة وقلبها يخفق بعنف، أسرعت تحث قطيعها بالإسراع.....

سلكت طريقًا غير مطروق من قبل... كاد النهار ينتصف.... وصلت لمبتغاها جبال «لبنى» وبينها وبين مرتفعات جبال «الريسان» ثمة مبانٍ قديمة مهجورة لمدرسة قديمة، فى حجرة صغيرة من خلفها يستطيع الهروب للجبال إن حل جنود الاحتلال.....

أخذ يستطلع المكان فى كل الجهات، أخذت تشرح له موقعه، مدينة العريش تبعد من هنا ما يقارب الستين كيلو مترًا... المدينة محاصرة وجنود الاحتلال بالليل والنهار أعطته هوية أخيها «عودة»... حددت له ملامح المكان وأقرب بئر... تركت له من الزاد ما يكفل الحياة لشهر قادم، قديم وخبز يابس ومعلبات وبقايا من علب بسكويت خاصة بالجنود، أخذت منه بطاقته العسكرية، عزمت فى

قرارة نفسها على شىء، شدت على يديه، ترقرقت عيناها بالدموع، لم يستطع أن يتفوه بكلمة واحدة... ودعته ومضت تخوف عليها.....

مضت أيام ثلاثة، تماثل للشفاء، اليوم طويل، شمس النهار خارقة وجنود الاحتلال يمرون، عيناه تراهم يعض ناجزيه بقوة يضرب رأسه بالجدار كم يتمنى أن يكون معه سلاحه فيقتلهم، قتلوا أصدقاء طريقه، دنسوا الأرض... وإن رحلوا لعن نفسه صوت ضوارى الليل ترهق منامه... صورة «شيخه» البدوية وبطولتها تسيطر على فكره، الحرب التى خاضها بلا حرب... الزملاء الذين ذهبت أشلاؤهم وسط الرمال تسلل فى الليل حتى البئر الذى يبعد قرابة كيلو متر واحد ملأ الإناء بالماء وعاد مسرعًا.... عادت الصحراء تضيئها مصابيح جنود الاحتلال.

الحجرة الثانية مغلقة استطاع بمجهود بسيط أن يكسر بابها لم يجد شيئًا أعاد غلقها، عاد لحجرته جلس مفكرًا أخذ ينبش حبيبات الرمل، أخذت يداه تغوصان لأسفل صنع حفرة كبيرة، اصطدمت أنامله بشىء صلب ظنه أول الأمر حجرًا.. أخذ يحفر من حوله.... استغرق ما يقارب الساعة

وجد كيسًا من الكتان استطاع جذبه، فتحه كانت مفاجأة له كم تمنى أن يكون سلاحًا وجد بداخله قطعًا أثرية نادرة تماثيل من الرخام وتماثيل من الخشب المطعم بالذهب.. لم يصدق ما يراه برديات ملفوفة بعناية داخل تابوت صغير فارغ... كتابات فرعونية قديمة تزين التابوت، ألوانها زاهية مازالت، عمل بيديه ثانية... تأكد من وجود أكياس أخرى.. ماذا يفعل؟ من الذى يهرب تلك الآثار؟... سرقوا الأرض!!! هل فى نيتهم أن يسرقوا التاريخ أيضًا؟... إلى أين تتجه تلك الآثار إنها آثار من بقايا طيبة القديمة... وتل العمارنة... وحتى عصور البطالمة.. عاشق هو للتاريخ متخصص فى دراسة الآداب والثقافة، كانت أمانيه فى الجامعة أن يلتحق بركب عشاق تاريخ مصر القديم وخاصة الفرعونى وأن يسهم فى كشف غموض تلك الحضارة.

مضت عشرة أيام أخرى، ماذا يفعل.. أعاد كل شىء لمكانه فى ذات الليلة سمع أصواتًا، جاءته بغتة، قفز للفناء الخلفى، حديث دار... خاص بالآثار... ضربوا موعدًا للذهاب بها... مضوا...

أيقظته «شيخة» من نومه... لم يصدق عينيه، قام من

نومه مذعورًا وجدها أمامه احتضنها، احتضنته، عادتها نفسها.. أبعدته وهبته خطابًا من زعيم حركة نجمة سيناء التى تتولى تهريب الجنود حدد له الغد مساءً للحضور...

وحدد له المكان طالبته أن يستعد للرحيل، اهتزت رأسه، صدمت بتردده وعزوفه عن الذهاب توسلت إليه، جلست، أخذ يقص عليها ما رأى وما اكتشفه، ضحكت، استغرب فعلتها دهشته وهى تقص عليه بعفوية بالغة «إنها أصنام» وأهلها يقومون بتوصيلها مقابل مئة جنيه لحمل الجمل الواحد وسيسلمونها لرجل من القوات الدولية يدعى «مستر وليم» علم منها أن الحرب حالت دون وصول الجمال بعد جهد طويل استطاع إقناعها بأن هذه الآثار هى التاريخ وأن الدولة بلا تاريخ يطمع الطامعون فيها وأن سرقة الآثار تعادل الحرب التى نخوضها وأخيرًا اقتنعت بكلماته طالبته أن يسرع لرحلة الوصول للعريش، رفض بشدة، طالبها أن يخفيا الآثار فى مكان بعيد عن هنا... استغربت.... عقدت الدهشة لسانها، تساءلت... هل هو مجنون يضحى بحياته فى مقابل تلك الأصنام؟!! أمام إصراره أذعنت لطلبه بعد طول تفكير وتدبر...

قضيا اليوم بطوله فى نقل عشرة أكياس من الآثار فوق بعيرها ... دفنوا الآثار فى بئر قديم بجانب جبل الريسان.. مضت هى... قضى الليل بطوله يدفن البئر بالرمال، حددا المكان معًا..

مضى الموعد الذى ضربه له زعيم نجمة سيناء، عزم على الرحيل إلى مدينة العريش... طالبته أن يلزم مكانه... أبى... أخبرته أن الطريق محفوف بالمخاطر لم يتراجع أحسن بالانتصار... أحس الزهو تعانقت يداهما... قرأ كلاهما الفاتحة.. تعاهدا.... من يبق على قيد الحياة يبلغ القوات المصرية، كان مقتنعًا أن الأرض عائدة... والحق لا يضيع... انسابت دموعها وودعها ثانية.

مضى، تابعت خطاه... مضت ببعيرها تابعته حتى اختفى أثره... بكت وعادت لقبيلتها وسرها فى صدرها.

اثنا عشر عامًا مضت، عاد الجنود المصريون للأرض، رفع العلم أقيمت الأفراح لم يعد معهم... تتبعت عيناها الجميع....

اقتحمت مبنى المحافظة، أدركت قائد المنطقة قبل مضيه، استمع إليها، ذهبوا كانت فرحتهم غامرة.... وسط

سعادتهم بخروج الآثار... اختفت سألوا عنها لم يجدوها...
لم تذكر اسم البطل الذى كان.....

الجندى المجهول

وقرءوا الفاتحة

تمت

صدر للمؤلف

١ – لن تسقط المئذنة (مسرحية) الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢ – انتقام سرب الحمائم العمياء (رواية) دار الشباب العربى.

٣ – الملونون (مسرحية) هيئة قصور الثقافة.

٤ – مطلوب أفضل جحش (مجموعة قصصية) دار الأحمدى.

٥ – محاكمة عيلة صابر (مسرحية) سلسلة الجنوبى.

٦ – فرعون الأمريكانى (مسرحية) نصوص جديدة ـ هيئة قصور الثقافة.

الفهرس

الإهـداء ٥
اقتلوا الموتى ٧
الأصل والظل ٢١
مجنون البحر ٣٥
دماء بلا ثمن ٤٥
من فضلكم.. أطلقوا الجياد ٦١
كان زمارًا ٨١
اللؤلؤ فى جوف المحار ٨٩
الحفلة ١٠١
وسام على قبر جندى مجهول ١٢١
صدر للمؤلف ١٣٧
الفهرس ١٣٩

منافذ بيع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة - ت : ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة ساقية

عبد المنعم الصاوى

الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو

من أبو الفدا - القاهرة

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة

بجوار كلية الإعلام - بالحرم الجامعى - الجيزة

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة

مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون
ش جمال الدين الأفغانى من شارع
محطة المساحة – الهرم
مبنى اكاديمية الفنون – الجيزة
ت : ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية
٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية
ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية
التمليك – المرحلة الخامسة – عمارة ٦
مدخل (أ) – الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس
مبنى الملحق الإدارى – بكلية الزراعة –
الجامعة الجديدة – الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد
بجوار مدخل الجامعة
ناصية ش ١١، ١٤ – بورسعيد

مكتبة أسوان
السوق السياحى – أسوان
ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط
٦٠ ش الجمهورية – أسيوط
ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا
١٦ ش بن خصيب – المنيا
ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)
مبنى كلية الآداب –جامعة المنيا – المنيا

مكتبة طنطا
ميدان الساعة – عمارة سينما أمير – طنطا
ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى
ميدان محطة السكة الحديد
عمارة الضرائب سابقًا

مكتبة دمنهور
ش عبدالسلام الشاذلى – دمنهور

مكتبة المنصورة
٥ ش الثورة – المنصورة
ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف
مبنى كلية الهندسة الإلكترونية
جامعة منوف

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org. eg

E - mail : info @egyptianbook.org. eg



توقفت الزغاريد وصمتت البنادق وعم الجميع الصمت وتحركت العيون وانفجرت الشفاه وجفت الحلوق وأصاب الألسنة الجمود، التصقت بى وتقابلت عيوننا. قطع الصمت "البهلول" وهو يضحك ويتكلم: "سيعودون ... ويعرفون كل شىء ... المقتول ... المسروق ... الزانى والزانية ... سيرفعون عن كل الوجوه الأقنعة ... ستظهر الحقائق ... يستردون أرضهم ... بيوتهم ... أحلامهم ... نساءهم ... لن ترثوهم. لن تقتسموا أموالهم".



ISBN# 9789774205600
6 221149 010000

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣ جنيهات